بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: ثابت لله تعالىٰ، فليعلم الجميع بذلك؛ ليحمدوه، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أوجدهما من العدم، وخصهما سبحانه بالذكر من بين الكائنات؛ لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين، وقدَّم السماوات؛ لشرفها؛ ولأنها متعبد الملائكة، ولم يقع فيها معصية، ولتقدُّم وجودها.

﴿وَجَعَلَ﴾ أي: خلق ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي كثيرة كظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وخلق كذلك ﴿ٱلنُّورَ﴾ وهو واحد؛ لأن الحق واحد، مهما تعددت صور الباطل.

وإله بهذا الوصف: يستحق أن يُحمد، وأن يُعبد، فهل كان الأمر من الخلق كذلك؟ كلَّا، حمدَ وعبدَ البعض: وهم الذين آمنوا.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مع قيام هذه الأدلة، على وحدانية الله، وعلىٰ قدرته ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي: عن حمد ربهم وعبادته والإيمان به ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسوُّون به غيره، ويشركون معه غيره، والذين كفروا يفعلون ذلك مع أنه سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

أي: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي: كتب وقدَّر ﴿أَجَلًا﴾ أي: موعدًا لكم، تموتون عند انتهائه، وهناك ـ كذلك ـ ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ آخر محدَّد ومقدَّر ﴿عِندَهُۥ﴾ لبعثكم، لا علم لكم به، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾

أيها الكفار، بعد هذا الخَلْق، الذي أنتم ثمرته، وبعد هذا الأجل، الذي ترون غيركم يموت عنده، كما تنتظرونه أنتم، ﴿تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكُّون، وتكذِّبون بالبعث، خاصة: بعد علمكم بأنه ﷻ خلقكم ابتداء، ومَن قدر علىٰ الابتداء ـ وهذا أمر بديهي ـ كان علىٰ الإعادة أقدر. والذين كفروا يكذِّبون بالبعث:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المعروف بالألوهية، والمستحق للعبادة وحده ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو الله الذي ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ما تسرون به، وما تجهرون به، بينكم وبين أنفسكم، أو بينكم وبين بعضكم البعض، ﴿وَيَعْلَمُ﴾ كذلك ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير فيثيب عليه خيرًا، ومن شر فيجزى عليه شرًّا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة ٧، ٨].

وفوق كل هذا بالنسبة للذين كفروا!!

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾

والمعنىٰ: أنه بعد كفرهم بآيات الله، وإعراضهم عنها كلية، كما أنهم كانوا يشكُّون ومع ذلك: كانت الآيات تستمر في العرض عليهم، رغبة في إيمانهم. ولكنهم كانوا دائماً معرضين عنها، لا يأبهون لها، ولا يلتفتون إليها، استكبارًا وعنادًا. ولكن لماذا هذا الموقف منهم؟

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

والمعنىٰ: لأنهم كذبوا، وأعظم شيء كذبوه، وكذبوا به هو: ٱلْحَقُّ، أي: القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وتحدَّاهم، وعجزوا، علىٰ كل حال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: فسيعلمون أخبار القرآن، وأنباء ظهوره، وعُلُوِّه، وانتشار مبادئه، كما سيعلمون يوم القيامة، حينما يأتيهم العذاب، قيمة ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهذا: تهديد لهم وتخويف، ودعوة للتفكير في حالهم، وضرورة مراجعة موقفهم من القرآن.

وإذا كانت الدعوة في الآية الفائتة بالتهديد والوعظ والتخويف، فهناك دعوة كذلك، وتهديد بضرب المثل، فلنقرأ قوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

والمعنى: فليؤمنوا، وإلَّا أهلكناهم بانقضاء آجالهم، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين يؤمنون، ولا يضرنا ذلك شيئًا، بل إذا لم يؤمنوا هم الخاسرون.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ في أسفارهم لتجاراتهم ﴿كَمْ﴾ أي: كثيراً ممن ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، عن طريق المعاينة، ورؤية الآثار، أو عن طريق سماع الأخبار، كقوم فرعون وغيرهم، ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: مدة انقضاء أهل كل عصر، هؤلاء الذين رأيتم آثارهم، أو سمعتم أخبارهم: كنا قد ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قوة وسعة، وبسطة، وأعطيناهم ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: ما لم نعطكم ونمكِّن لكم به في الأرض، ﴿و﴾ كذلك ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ كثيرًا متتابعًا، منه يشربون، وبه يزرعون.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: من تحت أشجارهم، ومساكنهم، يعني: عاشوا في الخصب بين الأنهار والأشجار والثمار، ومع ذلك لم يؤمنوا! ماذا حدث لهم؟

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ أي: أهلكنا أهل كل قرن من تلك القرون، وذلك.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم، ولم تُغْنِ عنهم كثرتهم، ولا ما هم فيه من قوة وثراء.

وأنتم كذلك: يا أهل مكة، بل يا كل الكفار إن لم تؤمنوا، وتكفُّوا عن العناد: سنهلككم كما أهلكناهم، وأيضًا: سنأتي من بعدكم بقوم آخرين، كما ﴿أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين كفروا ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ يؤمنون، فيسعدون.

ولكن يبدو أنه لا أمل في إيمان المعاندين من أهل مكة، ولا المعاندين من الكفار في كل عصر، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

والمعنىٰ: ولأن طبيعتهم ـ أي: المعاندين لله ولرسوله ـ جاحدة فهم لا يؤمنون، حتىٰ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أي: كلاماً مكتوباً في ورق، كما اقترحوا، مما يشير إليه قوله تعالىٰ علىٰ ألسنتهم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد نزوله ـ واللمس باليد: أقوىٰ دلائل التأكد والتثبت ـ وهذا يقتضي: اليقين بصحة نزول القرآن من عند الله، وضرورة الإيمان برسالة محمد ﷺ.

فهل ـ بعد ذلك ـ يؤمنون؟ لا بل: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لشدة عنادهم وجحودهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ **أي**: سحر واضح، سَحَرنا به محمد، وما هو بنبي.

وليس هذا فقط، بل زادوا في عنادهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

والمعنىٰ: لو نزَّلنا عليك كتابًا مكتوبًا في ورق، ولمسوه بأيديهم وعاندوا، وقال الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]؛ لزادوا في عنادهم، واقترحوا أشياء أخرىٰ، تعجيزًا له ﷺ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الذين كفروا منهم، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلّا أُنزل عليه ملك، بمعنىٰ: يا ليته أُنزِل عليه ملك، ولا جواب لـ ﴿لَوْلَا﴾ هذه منهم، ولكنّ الجواب عليهم من الله تعالىٰ بما يكشف استمرار عنادهم.

حيث يقول أولًا: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ كما اقترحوا وطلبوا، فلم يؤمنوا: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بهلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلون لتوبة، أو معذرة، كعادة الله فيمن قبلهم، من إهلاكهم عند تنفيذ مقترحهم إذا لم يؤمنوا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني: ولو استجبنا لهم، وأنزلنا مَلَكًا كما طلبوا ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: لجعلنا المَلَك الذي طلبوه علىٰ صورة الرجل؛ ليتمكنوا من رؤيته، حيث لا قوة للبشر علىٰ رؤية المَلَك، ﴿و﴾ لو أنزلناه، وجعلناه رجلًا؛ ليتمكَّنوا من رؤيته: ﴿لَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: لخلطنا عليهم، وزدناهم ضلالًا علىٰ ضلالهم، وذلك بسبب ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ علىٰ أنفسهم، بأن يقولوا ما هذا إلَّا بشر مثلكم، وليس مَلَكاً كما طلبنا، مع أنه ملك.

ثم يتوجه الخطاب والكلام إلىٰ الحبيب ﷺ، فيقول له ربه، مثبِّتًا، ومطمئنًا:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

والمعنىٰ: لا تحزن يا محمد من موقفهم هذا، وعنادهم، واستهزائهم، فلست وحدك في ذلك، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ من إخوانك، الذين أُرسِلوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ ولم يفلتوا من عقاب الله، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ **أي**: فنزل وحاق بهؤلاء الساخرين المعاندين المكذبين، جزاء استهزائهم ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ من الرسل ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾. فكيف بمن يستهزئ بك، أو بما جئت به؟ !!

خوِّفهم يا محمد بمصائر مَن سبقهم من المكذبين:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ علاجًا لتكذيبكم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ واعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل من قبلكم، حتىٰ لا تكذِّبوا مثلهم.

ثم قل لهم أيضًا:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، دعوة لهم، متسائلًا: ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾؟ وأجب فورًا: حيث لا خلاف حول هذه القضية و ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ حتىٰ وإن لم يقولوا ذلك.

ثم قل: ﴿كَتَبَ﴾ ربكم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ أي: قضىٰ فضلًا وعطفًا، ودون إلزام، وفي ذلك: تلطُّف وترغيب في دعوتهم للإيمان.

وبعد الترغيب: يكون الترهيب، في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليجازيكم بأعمالكم، وعنادكم، إن بقيتم علىٰ الكفر، ويوم القيامة هذا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ فهو آتٍ لا محالة، وعقابكم ـ إن بقيتم علىٰ الكفر ـ حاصل حاصل.

علىٰ كل حال ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للعذاب والمهانة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة، فلا تبتئس يا محمد من أجل هؤلاء المعاندين.

ويقرِّر المولىٰ سبحانه ملكيته للكون، وسمعه، وعلمه، بقوله جل جلاله:

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿و﴾ قل يا محمد ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله ﷻ ﴿مَا سَكَنَ﴾ أي: ثبت واستقر ﴿فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ يعنى: كل شيء في الوجود ملك له سبحانه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقال في هذا الوجود كله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُفْعل فيه.

وما دام الأمر كذلك: فإن الله ﷻ يأمر حبيبه ﷺ أن يعلنها صريحة مدوِّية في قوله الكريم له:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، وللدنيا كلها، وهو أمر لكل مسلم ـ كذلك ـ أن يقولها واضحة قوية، لكل مَن يحاولون صرف المسلم عن دينه:

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أعبده، وأقصده في كل شيء سوى الله سبحانه وتعالىٰ؟ هل يعقل هذا؟ خاصة: وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما ومخترعهما علىٰ غير مثال سبق، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق الدنيا كلها وأهلها، فهو الخالق الرازق، والمنافع كلها من عنده سبحانه.

وبعد هذا الإنكار: يكون طلب الإعلان عن الموقف الصريح: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ثانيًا: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وألتزم من هذه الأمة، وقيل لي كذلك: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالىٰ، يعني: أُمِرت بالإسلام، ونُهيت عن الشرك؛ حيث إنهما لا يجتمعان أبدًا.

كما أُمِرَ ﷺ أن يعلن كذلك ما يلي:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، والأمر ـ كذلك ـ لأمته ﷺ، بالتكليف نفسه:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بعبادة غيره، أو بإشراك غيره في عبادتي، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة. خاصة وأنه:

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

يعني: الذي ﴿يُصْرَفْ﴾ ويُبْعَد ﴿عَنْهُ﴾ العذاب، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في يوم القيامة: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله، الرحمة العظمىٰ، وأراد له الخير.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الصرف للعذاب عنه يوم القيامة: هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ والنجاة الحقيقية.

وأي فوز أعظم من النجاة من النار، ودخول الجنة؟!

وإذا كان هناك تصوُّر، أو أدنىٰ خاطر في أن إعلان موقف المسلم من ربه ومن دينه، بهذا الشكل المطلوب: قد يتسبب له في أي ضرر، فليعلم جيدًا «أن النفع والضُرَّ بيد الله وحده» حيث يقول عز وجل:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

والمعنىٰ: اعلم أيها المؤمن جيدًا أنه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ أي: يصيبك ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض، أو فقر، أو إيذاء، أو ابتلاء، أو غير ذلك من صُوَر البلاء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ أي: لا صارف له، ولا منجي منه، ومن ضرره ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

واعلم أيضًا أنه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ أي: يُنعِم عليك الله ﴿بِخَيْرٍ﴾ من غنى، أو صحة، أو منصب، أو جاه، أو ولد، أو غير ذلك، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فهي نعمة من قادر، يحفظها عليك، ويديمها عندك، أو يزيلها منك إن أراد وحده.

وزيادة علىٰ ما عرفت أيها المؤمن فاعلم ـ أنت وغيرك ـ ما يجب أن يكون معلومًا عن المولىٰ ﷻ، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يعني: هو الذي خضعت له الرقاب، وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته وجلاله وكبريائه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت قهره، وخضعت لمشيئته، فلا ينفذ شيء إلّا بمشيئته، ولا يكون إلّا ما أراد، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، وأحكامه، وتشريعاته، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمصالح عباده.

ولذلك: لا يعطي إلَّا عن علم وحكمة، ولا يمنع إلَّا عن علم وحكمة، سبحانه تعالت عظمته.

قال الكفار للنبي ﷺ: لقد سألنا عنك اليهود ـ وهم أهل الكتاب ـ عن صدقك في نبوتك، وطلبنا منهم الشهادة في ذلك.. فأنكروك، وأنكروا نبوتك، فهل أتيتنا بشاهد يشهد لك، فأنزل الله تعالىٰ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

والمعنىٰ: إسأل الكافرين عن أعظم الأشياء شهادة، أي: عن أعظم الشهداء، ثم أجب بقولك: ﴿ٱللَّهُ﴾ حيث لن يقولوها عنادًا واستكبارًا، نعم ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ﴾ علىٰ صدقي فيما أبلغكم به.

وقل لهم كذلك: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي عرفتم ما فيه من إعجاز ومعجزات ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ يا أهل مكة، بل يا كفار الدنيا كلها، وكذلك أنذر ﴿مَن بَلَغَ﴾ أي: مَن بلغه القرآن، من الإنس والجن في أي مكان، وفي أي زمان بعدي إلىٰ يوم القيامة.

ثم يوبِّخهم، ويبكِّتهم، بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا لا يصح ولا ينبغي؛ لأنه إلٰه واحد، هو المعبود بحق.

ولذلك: أنا ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وبذلك أشهد، وأؤمن، ﴿وَإِنَّنِي﴾ في الوقت ذاته ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ معه سبحانه من الأصنام، والمعبودات الزائفة الأخرىٰ.

هذا ولئن كان أهل الكتاب من اليهود كذبوا علىٰ أهل مكة حينما سألوهم عن محمدﷺ، وطلبوا شهادتهم في أمر صدقه في ادعائه النبوة، فإن الله ﷻ يكشف سترهم، ويفضح كذبهم، ويظهر الحقائق للدنيا كلها بقوله جل وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

والمعنىٰ: أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ يعرفون صفة النبي ﷺ، من كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ وبالتالي، فهم يعرفون صدق نبوته، وعالمية رسالته، وخاتمية بعثته ﷺ.

وعلىٰ ذلك فـ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ من المشركين، والملحدين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ﴿فَهُمۡ﴾ هؤلاء الذين ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ به، ولا بالذي أوحي إليه، وهم حقًّا الخاسرون لرضوان الله، ونعيم الجنة.

هؤلاء الذين ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ: قد ظلموا.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

والمعنىٰ: لا أظلم من اثنين: الذي يفتري ويختلق علىٰ الله الكذب، كنسبة الشريك إليه، والذي يكذِّب بآياته، كما فعل أهل الكتاب في إنكارهم للقرآن.

والحال والنتيجة أنه: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بما يرجون إلىٰ ما يحبون.

ثم تنقلنا الآيات الكريمة إلىٰ مشهد من مشاهد القيامة، حيث تقول:

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

والمعنىٰ: اذكر أيها العاقل ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: كل هؤلاء الظالمين، الكاذبين، المكذبين، ماذا يحدث يومذاك؟ ﴿نَقُولُ﴾ توبيخًا ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ مع الله غيره: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أنهم آلهة، وتعبدونهم مع الله، أو غير الله؟

أين هم الآن؟!! بماذا يجيب هؤلاء الظالمون؟ يقول ربنا: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ أي: جوابهم، وسمَّاه فتنة؛ لأنه جواب كاذب، فتنوا به، وظنوا أنه ينجيهم في هذا الموقف، ماذا قالوا في جوابهم؟ ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ أمر عجيب، وجواب غريب.

﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد، ويا كل عاقل ﴿كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾ بنفيهم الشرك، الذي كانوا فيه غارقين، وله ملازمين، وانظر يا محمد، ويا كل عاقل: كيف ﴿ضَلَّ عَنۡهُم﴾ وغاب من عقولهم، وعن نجدتهم، وعن نفعهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، من الآلهة المزعومة.

وبعد ذلك: يبيِّن الله لحبيبه أن من الكفار مَن يستمع إلىٰ القرآن، ولكنه لا يستفيد شيئًا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء الظالمين الكاذبين الكافرين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن، وهذا في زمن محمد ﷺ، وفي كل زمن بعده إلىٰ يوم القيامة.

﴿و﴾ لكن بعنادهم وجحودهم ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ تحول بينهم وبين فقهه وفهمه والانتفاع به، ﴿و﴾ كذلك جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلًا، يحول بينهم وبين الاستماع النافع.

هؤلاء: لا ينتفعون بعقولهم، ولا بقلوبهم، ولا بأسماعهم، ولا بأبصارهم، حيث إنهم كذلك ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾ دالة علىٰ وحدانية الله، وصدق رسالة محمد ﷺ ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عنادًا واستكبارًا.

﴿حَتَّىٰ﴾ إنهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ وتشرَّفوا برؤيتك، وسعدوا بمجالستك، لا ينتفعون بهذا، بل ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾، بماذا يجادلون؟ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا الذي نستمع إليه ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيب ينقلها ويحكيها عن الأولين السابقين، ليلفت نظرنا إليه، ويضحك علينا بها.

يقول الله تعالىٰ عن هؤلاء:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن، أو عن محمد ﷺ والإيمان به، واتباعه، ﴿و﴾ كما أنهم ـ في الوقت ذاته ـ ﴿يَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم، فلا ينتفعون به، ولا يستفيدون منه.

وهم بهذا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ ويضرونها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بخطورة هذا الضرر الغائب عنهم، بعد أن لم يدركوا خطورة الضرر المشاهد في الدنيا.

إذا كان هذا حالهم في الدنيا، فما حالهم في الآخرة؟ يصوِّره ما يلي من الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: عاينوا النار ورأوها، أو حين حُبسوا علىٰ الصراط فوق النار، لرأيت منظرًا عجبًا، بل لسمعت ما هو أعجب، ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا﴾ وهم يتحسَّرون ﴿نُرَدُّ﴾ إلىٰ الدنيا، فنتبع محمدًا، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ كلها، ومن أعظمها القرآن، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: معهم، وفي صفوفهم.

ولكن!! أنّىٰ لهم هذا الرجوع، خاصة وأنه اضطراري، لا عن قناعة: ﴿بَلْ﴾ هم لا يؤمنون، إنما الواقع، أنه ﴿بَدَا﴾ ظهر واتضح لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ عن الناس من فضائحهم، ومساوئهم، وظلمهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا الموقف الذي انكشف فيه كل شيء، وشهدت فيه علىٰ المرء جوارحه، والحقيقة: أنهم ﴿لَوْ رُدُّوا۟﴾ إلىٰ الدنيا كما يتمنون الآن ﴿لَعَادُوا۟﴾ مرة أخرىٰ ﴿لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في وعدهم الإيمان إذا عادوا إلىٰ الدنيا.

﴿و﴾ لو عادوا ﴿قَالُوٓا۟﴾ مرة أخرىٰ، كما كانوا يقولون ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا﴾ أي: ما هي إلَّا ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ فقط ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ مرة أخرىٰ لحساب أو جزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ كذلك هؤلاء المعاندين، يوم القيامة، وقد ﴿وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ يعني حُبسوا بين يديه للسؤال.

﴿قَالَ﴾ أي: يقول لهم ربهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي أنتم فيه الآن من البعث ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الواقع الموجود بالفعل؟ فماذا يكون جوابهم؟ لقد كانوا يسمعون عن البعث، أيام كانوا في الدنيا، وكانوا ينكرونه؛ لذا: يجيبون قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: هو حق،

لا ريب في ذلك، ثم يؤكدون كلامهم بالقسم عليه قائلين: ﴿وَرَبِّنَا﴾ ليؤكدوا الإقرار والاعتراف بالبعث والربوبية، ولكن متىٰ ذلك، وقد فات الأوان !! والنتيجة؟ النتيجة معلومة.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وعنادكم في الدنيا.

هؤلاء الذين كذبوا بالبعث ولقاء الله: قد خسروا، يقول الله تعالىٰ:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

والمعنىٰ: هؤلاء الذين كذبوا ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وهو البعث: خسروا خسرانًا لا ينتهي. . هؤلاء: ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: دون علمهم بوقتها، ودون استعداد لها، ولمَا بعدها.

﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ وهو ندم لا يفيد ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: قصَّرنا، وتغافلنا عنها، وعن الإيمان بها، والعمل من أجل النجاة فيها، وكان ذلك التفريط: في زمن الدنيا.

يقولون ذلك، ويتحسرون بهذا الشكل: ﴿وَهُمْ﴾ في الواقع ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ لا تفارقهم، ولا يتخففون أو يستريحون منها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ لأنه بئس الحمل حملهم، وساء الوزر وزرهم.

ما الذي شغل هؤلاء عن الإيمان، وعن العمل الصالح، حتىٰ يتحسَّرون هذه الحسرة؟ الدنيا!!

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: الانشغال بها، والانقطاع لها، ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ بترك ما ينفع لمَا لا ينفع ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: ميل عن الجد إلىٰ الهزل، وما أهلها المنشغلون بها إلَّا أهل لعب ولهو، وأما الدار الآخرة، وهي دار الخلود: فهي ﴿خَيْرٌ﴾ ونفع، وحياة حقيقية ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ربهم في الدنيا، بترك المعاصي، والإقبال علىٰ الطاعات.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك؟!! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة، فتعملون للآخرة؟!! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عن الله، فتسمعون، وتطيعون وتتقون؛ فتثابون؟!!

هذا التكذيب: كان يحزن النبي ﷺ؛ حيث كان يودّ إيمانهم ويرجوه، ولأن الله يحبه، ولا يتركه حزينًا: فقد آنسه، وخفَّف عنه، بقوله تعالىٰ:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والمعنىٰ: نحن نعلم يا محمد ﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ عنك، ويكذبون به عليك، من أنك ساحر، وأن ما جئت به هو أساطير الأولين.

فلا تهتم بهم، ولا بتكذيبهم، حيث ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لذاتك، فهم الذين أطلقوا عليك، وعرفوك بالصادق الأمين، وما تكذيبهم لك إلَّا من باب الظلم، والجحود والإنكار لآيات الله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهم ظالمون، فلا تحزن عليهم، ولا تبتئس من أجلهم.

ولأن عموم البلوىٰ: مما يهوِّن الألم، ويخفِّف الحزن، فقد قال تعالىٰ لحبيبه ﷺ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

والمعنىٰ: لست وحدك يا محمد في تكذيب قومك لك، فـ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة، من إخوانك الذين أرسلوا إلىٰ أقوامهم ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وأوذوا كذلك منهم، فماذا فعلوا؟ ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ أي: صبروا علىٰ تكذيب قومهم لهم، وإيقاعهم الأذىٰ بهم، ولكن.. إلىٰ متىٰ هذا الصبر علىٰ التكذيب والإيذاء؟ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ علىٰ أعدائهم، حيث إنه ليس بعد الصبر إلَّا النصر، كما هي سنتنا، ووعدنا لأوليائنا، فاصبر حتىٰ يأتيك نصرنا علىٰ أعدائك.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا مبدل، ولا مغيِّر، لمواعيد الله، في نصرة أوليائه علىٰ أعدائهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بعض أخبارهم، وقصصهم مع أقوامهم، فيما

أوحينا إليك من القرآن؛ لتعتبر بها، وتتصبَّر بما حدث لأصحابها، وهذا ما ينبغي عليك فعله. أمَّا:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم عليك ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام، بسبب حرصك عليهم، ورغبتك في إيمانهم، فماذا ستفعل، والأمر ليس إليك في هدايتهم،؟! علىٰ كل حال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ﴾ تجد ﴿نَفَقًا﴾ سربًا، ﴿فِى﴾ باطن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مما اقترحوا عليك ليؤمنوا: فافعل، كما أنه: إن استطعت ـ كذلك ـ أن تجد ﴿سُلَّمًا﴾ تصعد به ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مما اقترحوا عليك ليؤمنوا: فافعل.

وفي كل الأحوال: لن تستطيع شيئًا من هذا، فاصبر إذًا، واعلم أنه: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتهم: ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: لجعلهم يختارون الهدىٰ، ولكن لم يشأ ذلك، ولهذا لم يؤمنوا.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بذلك، وما فيه من الحكم العظيمة.

إن بعد هذا التأنيس، وتهوين شدة موقف الكافرين وعنادهم علىٰ رسول الله ﷺ، وعلىٰ الدعاة إلىٰ الله من بعد.

يبيِّن الله تعالىٰ لحبيبه ﷺ أن هؤلاء الكفار لا يسمعون بعقولهم، ولا يستفيدون مما يسمعون؛ لأنهم موتىٰ القلوب:

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

والمعنىٰ: لا تحزن ولا تهتم يا محمد بمن لا يستجيب لدعوتك من هؤلاء، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لها ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وانتفاع، وهؤلاء الذين يعاندونك، ويكفرون بك وبدعوتك: موتىٰ القلوب، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحييهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا البعث والإحياء ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء، فيجازي كل أحد بما يستحق. ومن صور عناد هؤلاء الكفار:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

والمعنىٰ: أنهم ﴿قَالُواْ﴾ هلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ ليقنعنا بنبوته ﴿ءَايَةٌ﴾ خارقة، كناقة صالح، وعصا موسىٰ، ومائدة عيسىٰ، تكون ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ الذي يدعونا إلىٰ الإيمان به؟

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ مما اقترحوا، أو غير ذلك من الآيات، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ضرر ذلك عليهم، حيث إنّه لو نزّلنا لهم ما اقترحوا: لوجب هلاكهم لو لم يؤمنوا، كما حدث لمن سبقهم.

ويلاحظ: أن طلبهم هذا، إهمال منهم لكل ما جاء مع محمد ﷺ من الآيات، وأعلاها شأنًا، القرآن الكريم.

ومع ذلك يبيِّن تعالىٰ بعض آياته العظيمة، فيقول عز وجل:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

والمعنىٰ: أن كل نوع من أنواع الحيوان، والطيور أمة من الأمم، وهذا في حد ذاته: آية تدل علىٰ الله تعالىٰ؛ بدليل أنه لا ينسىٰ أحدًا منها تدبيرًا ورزقًا.

وهكذا ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: تركنا وأهملنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ فلم نكتبه.

حقًّا مَن لم ير هذه الآيات، ويؤمن بها، فأي آية تجعله يؤمن؟ كما أن الجميع من هذه الأمم والخلائق ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيقتص من هذا لذاك، ويقضي بينهم جميعًا، وهذه أيضًا آية.

ومع هذا فالذين كفروا: صمٌّ وبكمٌ لا يهتدون. كما وصفهم الله بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

والمعنىٰ: والذين كذبوا بالقرآن، وكذبوا محمداً ﷺ، وكفروا بالله تعالىٰ، كالأصم الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا يتكلم؛ لأنه لا يستفيد بما يسمع، ولا يتكلم بالحق الذي يعرف،

ومع ذلك يعيش في ظلمات الجهل والشك، فكيف يهتدي إلىٰ الحق مثل هذا؟ هؤلاء لا يكون منهم إيمان؛ لفساد طبعهم وطبيعتهم.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ لفساد طبعه ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام.

ثم يأمر تعالىٰ نبيَّه بتوجيه الخطاب إلىٰ الكفار المعاندين، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردًّا عليهم في اقتراحهم أن تأتيهم بآية من ربك: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا، أو في الآخرة!! ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: فاجأتكم القيامة!! ماذا تفعلون؟ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ من آلهتكم المزعومة ﴿تَدْعُونَ﴾ يعني: تستغيثون بها، وتطلبون منها إنقاذكم مما أنتم فيه.

علىٰ كل حال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنها تنفعكم، وتدفع عنكم الضر فادعوها. وفي الحقيقة دعاؤكم لها لن يحدث، واستغاثتكم بها لن تكون:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

يعني: في ذلك الوقت العصيب لن يكون دعاؤكم إلَّا لله، واستغاثتكم لن تكون إلَّا بالله. كما أنه: لن يكشف عنكم ما بكم إلَّا الله تعالىٰ إن شاء ذلك، فضلًا منه ورحمة.

وأما آلهتكم التي كنتم تعبدونها وتشركونها مع الله: فإنكم تنسونها تمامًا في هذا الوقت، الذي تدركون فيه جيدًا أنه لا يضر ولا ينفع إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم يبيِّن ربنا سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام، أن التكذيب عادة الأمم مع إخوانه من النبيِّين قبله؛ حتىٰ لا يزداد ألمه وحزنه من أجلهم، فيقول جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

والمعنىٰ: لقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا محمد إلىٰ الأمم السابقة، لتبليغهم رسالة الله ودعوتهم إلىٰ التوحيد.. فكذبوهم، كما كذبك قومك، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: أصبناهم بالبؤس، والفقر، والجوع، والمرض، ونقصان الأنفس والثمرات، أتدري

لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لعلهم يعرفون ربهم، فيؤمنون به، ويتوبون عن ذنوبهم، ويخشعون له، ويتضرعون إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم. ثم ماذا فعلوا؟

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

والمعنى: أنهم عاندوا، ولم يتضرعوا، ولم يؤمنوا، أما كان الأَوْلى بهم، والأنفع لهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ أن يتركوا عنادهم، ويـ ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾؟ ﴿وَلَٰكِن﴾ ما الذي جعلهم لا يتضرعون؟ لقد ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ واستمرت على ما هي عليه من العناد، بل زادت فيه. ما السبب في هذه القسوة؟ إنه الشيطان: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي، والكفر بالله، والعناد لرسله عليهم السلام، فماذا حدث لهم بعد ذلك؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

والمعنى: فلما قست قلوبهم، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وأهملوا ما ذكَّرتهم ووعظتهم به أنبياؤهم!! ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من ملذات الحياة، بعد البؤس الذي كانوا فيه؛ استدراجًا لهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ فرح الطغاة الظالمون، الذين لا يشكرون الله على نِعَمِه، واطمأنوا على أحوالهم، ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بالعذاب فجأة، من حيث لا يتوقعون.

ويلاحظ: أن نزول العذاب بهم، وهم في حالة الرخاء والسلامة، أشد عليهم وقعًا، وأكثر لهم ألمًا.

فلمَّا حدث ذلك: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ إذا هم متحيرون في أمرهم، يائسون من كل خير، حزانى منكسرون. وهكذا:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: قطع دابرهم، وانتهوا عن آخرهم، بسبب ظلمهم، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث نصر المرسلين، وأهلك الظالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين المكذبين المعاندين: أخبروني إن أصابكم الله بالصمم، وأعماكم، بأن أخذ سمعكم وأبصاركم، ﴿وَخَتَمَ﴾ كذلك، يعني: طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بحيث لا تعرفون شيئًا، ولا تميِّزون شيئًا: هل يقدر أحد غير الله تعالىٰ أن يرد ذلك أو شيئًا منه، ويعيده إليكم، كما كان؟ إن أمرهم لعجيب!!

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نُبيِّن، ونُنوِّع لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ والدلائل، علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا؛ لكي يؤمنوا، ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ بعد ذلك كله ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعني يُعرِضون عنها، ولا يعتبرون بها، ولا يؤمنون بسببها. أيضًا قل لهم يا محمد:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين المكذِّبين المعاندين: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ وحَلَّ بكم ﴿بَغْتَةً﴾ **أي:** فجأة، دون علامة تسبقه ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأن سبقته علامات تدل علىٰ قرب وقوعه، ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك سخط من الله تعالىٰ، وغضب عليهم ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم.

ثم يبيِّن ربنا ﷻ وظائف الرسل عليهم السلام، حيث يقول:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: لم نرسل هؤلاء الرسل لتقترح عليهم الآيات، ويكونوا محل اختبار من أقوامهم بل هم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالخير للصالحين، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالشر للعصاة.

وعلىٰ ذلك: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله، وبما جاءوا به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، فرداً كان أو جماعة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم، أو فاتوه وتركوه، من متاع الدنيا الزائل. وأما غير هؤلاء، فيقول تعالىٰ عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: الفريق الآخر من أقوام الرسل، وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ بآياتنا، وعاندوا رسلنا فهؤلاء: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، وينزل بهم، في الدنيا والآخرة، وذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة الله، ومتابعة الرسل. يا محمد:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكافرين المكذبين المعاندين: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ التي يرزق منها عباده، حتىٰ أتصرَّف فيها، كما تريدون، وتقترحون علىٰ قلب الجبال ذهبًا، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتىٰ تسألوني عن وقت قيام الساعة، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتىٰ تطلبوا مني الصعود إلىٰ السماء، أي: أنني لست بهذا ولا ذاك، إنما أنا بشر ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من ربي، فأبلغكم به، لا أنقص منه، ولا أزيد عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم، بعد هذا التوضيح، وهذا البيان: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يعني الكافر الذي ضل الطريق، والمؤمن الذي هُدي إلىٰ صراط مستقيم؟ لا يمكن أبدًا أن يستويا. وما دام الأمر كذلك ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعقلون، فتؤمنون؟

هؤلاء المعاندون: لا يخافون ولا يتعظون!! يا محمد بعد أن بلَّغتهم وأنذرتهم: اتركهم، ولا تنشغل بهم:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

يعني: خوِّف بالقرآن الذين يخافون ربهم، ويتعظون بآياته، ويخافون لقاءه في يوم الحشر، يوم ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم﴾ في هذا اليوم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني غيره سبحانه ﴿وَلِىٌّ﴾ يتولىٰ أمرهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم في دفع العذاب عنهم، وهؤلاء: هم عصاة المؤمنين خوِّفهم بالعذاب ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ربهم فيُقبلون علىٰ طاعته، ويبتعدون عن معصيته.

مناسبة الكلام علىٰ المؤمنين، فإن الكفار طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد فقراء

المسلمين من مجلسه، حتىٰ يجلسوا هم معه، قال ﷺ: «**ما أنا بطارد المؤمنين**».

قال الكفار: فاجعل لنا يوماً نجلس معك فيه، وتتحدث العرب بفضلنا، فإذا فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فوافق ﷺ علىٰ ذلك.

وهنا نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

الآية الكريمة ـ كما هو واضح ـ نهي للنبي ﷺ ـ وهو للدعاة كذلك من بعده ـ عن طرد الفقراء الذين يعبدون الله، ويخلصون في طلب العلم، من مجلس العلم والمعرفة، ومَن يطرد هؤلاء: فهو من الظالمين.

والمعنىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ من مجلسك، هؤلاء المؤمنين الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يعبدونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يعني بالصلوات كلها في الأوقات كلها ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: مخلصين لله في عبادتهم له، وطلب عفوه وغفرانه، وليس شيئًا من أغراض الدنيا ومتاعها الزائل.

خاصة وأنه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ يعني ما عليك رزقهم، حتىٰ يشق عليك ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، ولكن رِزْقهم علىٰ الله تعالىٰ، كما أن رزقك ليس عليهم كذلك، لا تطردهم ﴿فَتَكُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن فعلت ذلك.

ما الحكمة في أن يكون أتباع الرسل عادة من الفقراء؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: كان أتباع الرسل عادة من الفقراء اختباراً وامتحاناً لأهل الكبر، هل يتخلَّون عن كبرهم، ويتقبَّلون شرع الله؟ وعلىٰ كل حال: فالاختبار للطرفين الأغنياء والفقراء.

﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾؟ يعني: يقول الأغنياء المتكبرون

علىٰ الفقراء: أهؤلاء الفقراء منّ الله عليهم بالإسلام دوننا، حيث سبقونا إلىٰ الإيمان؟ ويقول الفقراء المتطلعون إلىٰ الأغنياء أهؤلاء الأغنياء غير المؤمنين، منَّ الله عليهم بسعة الرزق دوننا؟ وهذه فتنة واختبار للفريقين، والله عليم ـ في الوقت ذاته ـ بمن يشكره من الفريقين.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له؛ فيهديهم إلىٰ الصواب؟ بلىٰ، وألف بلىٰ.

ثم يكون الأمر للنبي ﷺ بتكريم المؤمنين، في قوله تبارك تعالىٰ:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

المعنىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ مَن نهيناك عن طردهم من مجلسك، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: الموصوفون بالإيمان بآيات الله، كما وُصِفوا في الآيات السابقة بالمداومة علىٰ عبادته ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] يعني: الذين جمعوا بين فضيلة العلم وفضيلة العمل. ﴿فَقُلْ﴾ لهم:

أولًا: ﴿سَلَٰمٌ﴾ من الله تعالىٰ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إكرامًا لكم.

ثانيًا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قضىٰ ربكم بسعة رحمته عليكم، وقبوله التوبة منكم، تفضلًا منه سبحانه وإحسانًا.

ثالثًا: ومن رحمته ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ أي: ذنبًا ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ منه لخطورة المعصية ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ رجع عن ذنبه، ولم يصر عليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله وسلوكه: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لأهل الإيمان ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

من أول السورة إلىٰ هنا، يقول عنه تبارك وتعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: بهذا التوضيح نبيِّن ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ المسطورة في القرآن، والمنظورة في الأنفس والأكوان: ليظهر الحق فيعمل به، والباطل فيبتعد عنه، أيضًا ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ أي: لتظهر ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني طريقهم، وما فيه من مخاطر وأضرار عليهم؛ فيجتنبوه.

ثم يأمر المولىٰ تبارك وتعالى محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار، المعاندين، المتكبرين أربعة أشياء:

الأول: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين، ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ من ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام، التي كانوا يعبدونها، وصُرِفت عن ذلك بفضل الله تعالىٰ، وفي ذلك: قطع لآمالهم الفارغة في ركونك إليهم.

الثاني: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ـ كذلك ـ لهم، ﴿لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ الضالة، المنحرفة، التي لا تقود إلىٰ خير أبدًا، ولو فعلت، واتبعت أهواءكم، وانحرفت عن ديني ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ وصرت ضالاً منحرفاً مثلكم، ﴿وَمَا﴾ كنت في هذه الحالة ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ كما أنكم لستم بمهتدين.

الثالث: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، ثالثًا:

﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ دليل وبرهان واضح بصدق ما أنا عليه، هذه البينة، وهذا الدليل: منزَّل ﴿مِن رَّبِّي﴾ وهو القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وأمّا أنتم فقد ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ولم تؤمنوا بالله تعالىٰ، ولذا صرتم مستحقين لعذاب الله.

فلما استعجلوا مجيء هذا العذاب، علىٰ سبيل الاستهزاء به: قال: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، بل العذاب عند الله تعالىٰ.

وما ﴿الْحُكْمُ﴾ في أمر هذا العذاب، أو مجيئه، أو غير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وليس لي، ولا لأحد سواه، فهو سبحانه ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: لا يحكم إلَّا بحق، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين، بيني وبينكم.

الرابع: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذِّبين الكافرين، ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وبيدي، ومفوَّض إليَّ من الله تعالىٰ، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ وهو العذاب، ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾ أي: لجئت به، وعُذبتم حقًّا، كما تستعجلونه استهزاءً، واسترحت منكم، ومن عنادكم، ولكن ذلك ليس بيدي، بل هو عند الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ووقت عقابهم المناسب، وأنتم ظالمون، وسيعاقبكم ربي تبارك وتعالىٰ، في وقت لا يعلمه إلَّا هو.

وإذا كان إيقاع العذاب بالكافرين: من اختصاص قدرة الله تعالىٰ، فإن معرفة وقت عذابهم: من اختصاص علم الله سبحانه، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿وَعِندَهُۥ﴾ تعالىٰ، وحده ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: خزائن الغيب، وما فيه، أو عنده الطرق الموصلة إلىٰ علم الغيب، ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ فقط.

وهذه المفاتح للغيب، التي لا يعلمها إلَّا هو سبحانه: هي الخمسة المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

وبعد أن بيَّن ربنا تعلُّق علمه بالغيبيات: ذكر تعلُّق علمه ـ كذلك ـ بالمشاهدات، فقال بادئًا في تفصيل بيان ذلك:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ وما فيهما من عجائب مخلوقاته الدالة علىٰ عظيم قدرته، وسعة علمه تبارك وتعالىٰ.

ثم بيَّن علمه ـ سبحانه ـ بأحوال ما في البر والبحر كذلك، فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ لأنه مسقطها بإرادته، ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ موجودة ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ إلَّا يعلمها، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ حي من النبات، أو غيره ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ ميت من

النبات ـ كذلك ـ أو غيره، إلَّا يعلمه سبحانه، كل ذلك مسجَّل ومدوَّن ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ واضح، لا يعلمه ولا يعلم ما فيه، إلَّا الله.

ثم يبيِّن الله تعالىٰ أثرًا من آثار قدرته، وقهره لعباده، حيث يقول عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وذلك بقطع أرواحكم عن باطنكم، فتنامون، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ أي: ما كسبتم وفعلتم ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ وبالليل أيضًا، ﴿ثُمَّ﴾ هو الذي ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوصل أرواحكم بباطنكم وظاهركم، فتستيقظون، سواء كان في النهار أو في الليل، وذلك النوم، وتلك اليقظة ـ وهي مظهر من مظاهر قدرته سبحانه ـ ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عند الله أي: لِتَتِم حياتكم إلىٰ أن يأتي أجل الموت الذي تنتهي عنده الحياة، وتنقطع أرواحكم عن ظاهركم وباطنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم البعث من القبور، ﴿ثُمَّ﴾ في هذا اليوم ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم، ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر.

وبعد ذلك: يصرِّح ربنا عز وجل بقهره لعباده، فيقول جل جلاله:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الغالب، المتصرِّف في أمورهم، لا غيره ـ سبحانه ـ حيث يفعل بهم ما يشاء، خلقًا وإفناءً، وإحياءً وإماتة، وإثابة وتعذيبًا.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، يحفظونكم، ويحافظون عليكم، وآخرين منهم يحفظون أعمالكم ويسجلونها عليكم، وهؤلاء الحفظة: يكونون معكم، يؤدُّون هذه المهام طيلة حياتكم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وانتهى أجله، ومدة بقائه في الدنيا، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: توفاه الله تعالىٰ، بأن أمر ملك الموت بقبض روحه، وأمر أعوان ملك

الموت بنزع هذه الروح من الجسد، ﴿وَهُم﴾ في القيام بهذه المهمة ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يقصرون، لأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وبعد قبض أرواح البشر، وموتهم ماذا يكون؟

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت، يكون البعث لجميع الخلائق ﴿رُدُّوٓاْ﴾، ويعودون إلىٰ الله تعالىٰ، الذي هو ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ حيث لا مولى ولا ناصر، في هذا اليوم إلَّا هو سبحانه، وهو الحكم العدل.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة، فيفصل بين الخلائق، يجازي العاصي، ويثيب المطيع، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، ولا اعتبار للوقت ـ عنده ـ في هذا الحساب، حيث لا يحتاج ـ سبحانه ـ إلىٰ فِكْر وَعَدّ، كما يحتاج البشر.

بعد هذا التخويف المفيد من رب العالمين لعباده، يأمر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ محمدًا ﷺ أن يذكِّر ببعض ألوان من قدرة الله عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] فيؤمنون، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين توبيخًا وتذكيرًا، ﴿مَن﴾ الذي ﴿يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أهوالهما، ومخاوفهما سوىٰ الله سبحانه وتعالى، الذي ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ عند الشدائد ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: في السر والجهر؟ تقولون ساعتئذٍ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال والمخاوف والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لك ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المؤمنين بك، المطيعين لأمرك، المتَّبعين لرسلك.

فماذا يحدث بعد دعائهم وقولهم هذا؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده، هو الذي ﴿يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من هذه

الظلمات في البر والبحر، والمخاوف، والشدائد، كما ينجيكم سبحانه وتعالىٰ: ﴿مِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ يصيبكم. ومع ذلك:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ الذين قلتم: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

فبعد أن ﴿يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، فلماذا ﴿تُشْرِكُونَ﴾ به سبحانه؟.

أهذا يعقل؟ أهذا يقبل؟!! يا محمد:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين محذرًا: الله ربي ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ وحده ﴿عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كالحجارة، والصيحة، والصواريخ والقنابل،... إلخ، أو يبعث إليكم عذابًا ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالخسف، والزلازل، والبراكين، والفيضانات...إلخ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي: يجعلكم وأنتم مع بعضكم البعض مختلطين ﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقًا، مختلفة الاتجاهات، متنازعة الرغبات والأهواء، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم﴾ بسبب هذا التخالف والتنازع ﴿بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: عذاب بعض.

حقًّا إنها ابتلاءات، وتخويفات شديدة، وتحذيرات أكيدة، فماذا فعل المعاندون؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نـنِّوع الآيات الدالة علىٰ قدرتنا لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ولكنهم لا يفقهون.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

والمعنىٰ: أنه بعد كل هذا البيان، والتحذير ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وما فيه من التخويف بالعذاب ﴿قَوْمَكَ﴾ أي: كل من عاندك من البشر أجمعين، حيث إنك مرسل لجميع العالمين، ﴿و﴾ كان عليهم أن يؤمنوا؛ لأنهم يعلمون علم اليقين، أنك نبي، وأن القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ وكل ما فيه حق.

وعلىٰ كل حال: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظ، يمنعكم من الكفر، أو يعاقبكم عليه، بل ذلك إلىٰ الله تعالىٰ. وقل لهم ـ أيضًا ـ يا محمد:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: لكل أمر أوانه، ولكل شيء أُخبر بوقوعه القرآن وقته المقدَّر فيه حدوثه، ومن ذلك: عذابكم، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ساعتها ما يحدث لكم، وينزل بكم أيها الكافرون.

ثم يحدد الله تعالىٰ لنبيه ﷺ موقفه من هؤلاء المعاندين، وذلك قبل الأمر بقتالهم، حيث يقول عز وجل:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد، أو يا أيها المؤمن ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يستهزئون بالقرآن، ويطعنون فيه، وأنت لا تقدر علىٰ رد استهزائهم ومنعه، أو الدفاع عنه، وإبطال مطاعنهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجالسهم، ولا تخالطهم، وابتعد عنهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ حتىٰ يبتعدوا عن ذلك، وينشغلوا بحديث غيره، أو أمر آخر.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ هذا النهي، فجلست معهم، وخالطتهم، فإن الله يغفر لك بسبب هذا النسيان، ولكن بشرط: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مرة أخرىٰ ﴿مَعَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، المعاندين، حيث لا ظلم أكبر من ظلم الاستهزاء بآيات الله، والتكذيب بها.

لمَّا نزلت الآية السابقة، قال المسلمون: إن قمنا كلما خاضوا في آيات الله واستهزءوا بها، لم نستطع أن نجلس في المسجد، ولا أن نطوف بالبيت، وهنا نزل قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

والمعنىٰ: ليس علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، شيء من ذنوب هؤلاء، إذا هم جالسوهم، فذلك مباح لهم، وفق ما شرَّع الله، ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يفارقوا مجلسهم إن خاضوا واستهزءوا بآيات الله، كما أن عليهم أن يعظوهم، من باب الـ ﴿ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيكفُّون عن ذلك، ويؤمنون.

ومن هذا نفهم أن موضوع الرد علىٰ المستهزئين بآيات الله، والطاعنين في القرآن الكريم: له اعتبارات.

حيث إن المؤمن إذا لم يكن مؤهَّلًا لهذا الرد وعالمًا به، فلا عليه إلَّا أن يسكت بشرط عدم الرضا، وعدم مخالطة المستهزئين، وأما إذا كان عالمًا بالرد مستطيعًا له، فعليه أن يرد، وفقًا للضوابط الشرعية، وذلك من باب الذكرىٰ والموعظة، وتبليغ الرسالة.

ولذلك: علىٰ المسلم أن يكون علىٰ ذكر وفهم لهذه الآية؛ حيث كثر في زماننا الخوض والطعن في آيات الله، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله. وعلىٰ كل حال:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: اترك هؤلاء الكافرين المعاندين الذين اتخذوا وجعلوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي فرض عليهم، وأُمِروا باتباعه ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ باستهزائهم به، وإعراضهم عنه ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وزخرفها بذلك الذي يفعلونه، اتركهم ولا تتعرض لهم.

﴿وَذَكِّرْ﴾ فقط ﴿بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن وما فيه، هؤلاء القوم وعظهم، وذلك: خوفاً عليهم، من ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ تمنع، وتحبس ﴿نَفْسٌۢ﴾ من هؤلاء ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بما عملت من سوء، حيث تبسل أي: تمنع من دخول الجنة، وتحبس في النار، و﴿لَيْسَ لَهَا﴾ في هذا الوقت، وهذا الحال غير الله تعالىٰ، ﴿وَلِىٌّ﴾ يدفع عنها هذا العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يطلب التخفيف أو النجاة لها، حتىٰ ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: تدفع كل شيء فداء لنفسها لا يُقبل، و ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المستهزئون، ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ حبسوا عن الجنة، وحبسوا في النار ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وعملوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار، يُقطِّع أمعاءهم، ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ مؤلم غاية الألم، وكان ذلك: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم. وحتىٰ يفيق هؤلاء الكافرون من ضلالهم:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

قيل: إن ابنًا لأبي بكر رضي الله عنه، لم يكن قد أسلم بعد، دعا أباه إلىٰ عبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية.

ومعناها: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، أو يا أبا بكر، أو يا أيها المؤمن، أنعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ بشيء ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بشيء، وندعوه لقضاء حاجاتنا، وإجابة دعائنا؟!! ﴿وَنُرَدُّ﴾ في الوقت ذاته ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ أي: إلىٰ الكفر بعد الإيمان، وإلىٰ الضلال بعد الهداية، وذلك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ووفَّقنا إلىٰ رحاب دينه، وأجواء طاعته!!! ونكون في هذه الحال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فأضلَّته عن الحق والنور والهدىٰ، وجعلته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ تائهاً لا يدري أين يذهب، ولا ماذا يفعل؟ مع أنَّ ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ مؤمنون، صالحون ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ ليهدوه إلىٰ طريق الصواب والفلاح، قائلين له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ تعال معنا إلىٰ الخير، ورضوان الله، ولكنه لا يُجيبهم، ولا يسير معهم، ولا يهتدي بهدى الله.

يا محمد، ويا أيها المؤمن أعلنها صريحة للدنيا كلها ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الحقيقي، وما عداه ضلال وضياع، وقل: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ وجوهنا وأمورنا ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقل كذلك:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أي: وأمرت ﴿أَنْ﴾ أقول كذلك ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: كونوا خاضعين لله، خاشعين لجلاله، مؤدِّين لتعاليمه وأحكامه، ﴿وَٱتَّقُوهُ ۚ﴾ فلا تعصوه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم علىٰ ما قدمتوه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

والمعنى: هذا الإله، الذي أَمرنا أن نسلم له، وأن نقيم الصلاة، وأن نتقيه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما، ومن فيهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة والحق، وهو الذي حين ﴿يَقُولُ﴾ للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بلا تمنُّع ولا تأخير.

حيث إن: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ الصدق الواقع لا محالة، فلا رادَّ لقوله، ولا معقِّب لحكمه، ﴿و﴾ هو الذي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وحده ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يوم القيامة.

وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما شوهد، أي: عالم السر والعلانية، عالم ما غاب عن العباد، وما هو مشهود لهم.

﴿وَهُوَ﴾ كذلك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وأحكامه وتشريعاته، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بباطن الأشياء كظاهرها، وبالحساب والجزاء.

يا محمد: بعد أن أنكرت عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر، اذكر لهم إبراهيم عليه السلام الذي يدَّعون أنهم على ملته:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

في هذه الآية وما بعدها: مناقشة من إبراهيم عليه السلام للكفر وأهله، وإبطال لدعواهم عبادة غير الله، وإبطال لحججهم.

ومعنى الآية: اذكر يا محمد للكفار وقت أن ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها من دون الله: هل هذا يليق منك، وهي لا تستحق ذلك؟!!

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ فيما تفعلونه هذا ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق واضح ﴿مُّبِينٍ﴾ لا خفاء فيه على عاقل أبدًا، وهذا تقبيح للشرك وأهله.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يعني: وكما أرينا إبراهيم قبح الشرك فيما سبق بعين البصيرة والعقل، نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لطائف السموات والأرض، فيما يأتي، بعين البصر والمشاهدة،

ليستدل به علىٰ وحدانيتنا، ﴿وَلِيَكُونَ﴾ بسبب هذه الدلائل والمشاهدات ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بوحدانية الله تعالىٰ، وقدرته.

وهذه بداية استعراض بعض ما في الملكوت، علىٰ طريقة إسقاط أدلتهم التي يتمسحون بها، قال تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني: عندما أظلم الليل علىٰ إبراهيم عليه السلام ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جهة السماء، وكانوا يعبدون الكواكب، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزَّعمون وتدعون، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب هذا الكوكب، أراد أن ينبِّههم إلىٰ الخطأ في دينهم، ويرشدهم إلىٰ الصواب، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ أن أتخذ ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾ الذين يغيبون أربابًا؛ حيث إنَّ الرب لا يجوز عليه التغيرُّ والانتقال.

فهل أقنعهم ذلك؟ أبدًا، ولهذا انتقل إلىٰ دليل مشاهد آخر. يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

يعني: وعندما أظلم الليل علىٰ إبراهيم عليه السلام ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعًا في السماء، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزعمون وتدَّعون، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب القمر واختفىٰ، أراد أن ينِّبههم أنهم في ضلال وعلىٰ غير هدى، ولكن بطريق غير مباشر، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ويثِّبتني علىٰ الهدىٰ ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ مثلكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فهل أقنعهم ذلك؟ أبدًا، ولهذا انتقل إلىٰ دليل مشاهد آخر.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يعني: وعندما طلع النهار علىٰ إبراهيم عليه السلام ﴿رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي: طالعة بنورها علىٰ الكون، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لقومه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كما تزعمون وتدَّعون، وزاد

قائلًا ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ من الكوكب الذي رأيته وأفل، ومن القمر الذي رأيته وأفل، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: غابت هي الأخرىٰ قويت عليهم الحجة، وسقطت أدلتهم في عبادتهم للكواكب والنجوم.

فهل اقتنعوا بالتوحيد، وتركوا شركهم الذي هم عليه؟ أبدًا.

لذلك: أعلن إبراهيم عليه السلام بكل وضوح وصراحة، البراءة مما يشركون.

وكأنهم قالوا: ماذا تعبد أنت؟ فأجابهم قائلًا:

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾

يعني: إني أسلمت أمري، و﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ وأخلصت بعبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ أي: خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وهو الله، وفي الوقت ذاته ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ يعني مائلًا عن الأديان كلها والمعبودات غير الله كلها، إلىٰ الله وحده، ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ علىٰ هذا الحال ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ به مثلكم.

هل اقتنعوا وآمنوا؟ أبدًا..!! فماذا فعلوا؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾

يعني: لم يؤمن قومه، ولم يتركوه، بل جادلوه في دينه، وفي توحيد الله، وهنا: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أي: أتجادلونني في توحيد الله، وترغبون في جعلي معكم في الشرك ﴿وَقَدۡ﴾ أنعم عليَّ ربي، و ﴿هَدَىٰنِۚ﴾ إلىٰ توحيده، ورحمته.

فهدَّدوه، وخوَّفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء وأذى ﴿و﴾ هنا قال لهم، أنا ﴿لَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ من الأصنام والكواكب والنجوم، ولن يصيبني سوء منها لعدم قدرتها علىٰ ذلك، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ ولكن إذا شاء ربي أن يصيبني من السوء شيئًا، بصفة عامة يكون. وذلك بمشيئته هو، لا بمشيئة الأصنام.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ أي: وسع علمه كل شيء وأحاط به ﴿أَفَلَا

﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميِّزون بين القادر والعاجز، فتؤمنون!! ثم قال إبراهيم عليه السلام لهم:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

والمعنى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ بالله من أصنامكم، التي تخوِّفونني منها، وهي لا تضر ولا تنفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أنتم من ربي، الذي بيده الضر والنفع، و ﴿أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ في العبادة ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بإشراكه معه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ يعني: دليلاً على أنه شريك لله.

وعلى ذلك: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أنا وأنتم: ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ من العذاب؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَن الأحق بالأمن حقيقة: فآمنوا.

ثم بيَّن لهم الذين هم أحق بالأمن؛ حيث قال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: الآمنون من عذاب الله تعالى، هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به سبحانه، واتبعوا رسله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وليس المشركون ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ من العذاب ﴿وَهُم﴾ في الوقت ذاته ﴿مُّهْتَدُونَ﴾.

يقول الله تعالى بعد هذا كله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

والمعنى: هذه المحاورات والأدلة التي قدمها إبراهيم عليه السلام، على توحيد الله، وقدرته، واحتج بها على قومه وبطلان ما هم عليه من الشرك: ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ أرشدنا إبراهيم إليها، وعلَّمناه إياها، ليتغلَّب بها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وضلالهم.

وفي ذلك: رفع لقدره، وإعزاز لجانبه؛ حيث إننا ﴿نَرْفَعُ﴾ مَن نشاء رفعه ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ فوق درجات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ في رفعه مَن يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق رفع القدر ومَن لا يستحق.

ولمَّا غلب إبراهيم خصومه، وانتصر عليهم في باطلهم بدلائله القوية، التي علَّمه إيَّاها.

ولمَّا لم يستجيبوا لدعوته: اعتزلهم، وهاجر من بلادهم، فاراً بدينه، عابدًا لله وحده !! عوَّضه الله بذرية صالحة كثيرة، ورفعهم في عليِّين، حيث يقول سبحانه:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

والمعنى: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنان هديناهما مثله، مقتديان به، كما هدينا ﴿نُوحًا﴾ قبل ذلك، ووهبنا له من الذرية كذلك ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ﴾ وكلهم من رسل الله وأنبيائه، جزاءً منَّا وإنعاماً، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الحسن بالذرية الصالحة المهتدية ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أيضًا: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يعني: وهبنا له كذلك من الذرية ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ﴾ وكلهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين آمنوا، وعبدوا الله وحده، وعملوا الصالحات.

أيضًا: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: وهبنا له كذلك من الذرية ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ﴾ ولأنهم من المحسنين، ولأنهم من الصالحين فضَّلناهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وزدناهم فضلاً على فضل، يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

يعني: وأنعمنا على هؤلاء بما يلي: فضَّلنا كذلك أناسًا ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ على العالمين لإيمانهم، وعملهم الصالحات، ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ يعني: اصطفيناهم واخترناهم لرسالتنا من دون الناس أجمعين، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الواحد إلى الناس كلهم في كل العصور.

ثم بيَّن هذا الصراط المستقيم قائلًا:

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصراط المستقيم، وهو الإسلام، الذي دان به الأنبياء، وهدوا إليه: هو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: دين الله وهديه ونعمته ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ فضلًا، ويضل عنه مَن يشاء من عباده عدلًا.

﴿وَلَوْ﴾ افترضنا أن هؤلاء الرسل والأنبياء ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ بالله تعالىٰ غيره مع فضلهم، ورفع درجاتهم: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ وضاع منهم ثواب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا: رفع لمكانة التوحيد، وإعلاء شأن الإسلام، وحط وإهدار للشرك وأهله.

ثم بيَّن ربنا عز وجل نتيجة عدم الإيمان بهؤلاء الرسل والأنبياء، فقال تعالىٰ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يعني: هؤلاء الأنبياء والرسل الثمانية عشر المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ من عندنا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الوحي المنزَّل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحكمة ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلىٰ مراتب البشر، وأرقىٰ درجات العبودية.

هؤلاء: يجب الإيمان بهم، واتباعهم فيما أوحي إليهم: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بنعمتنا عليهم، ووحينا إليهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المعاندون المكذِّبون لك يا محمد، من أهل مكة أو غيرهم: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ وفَّقنا للإيمان بها، وأعددنا للقيام بواجباتها ﴿قَوْمًا﴾ غيرهم كالمهاجرين والأنصار، ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ مثلهم، بل مستمرون علىٰ الإيمان إلىٰ يوم القيامة.

ثم بيَّن ربنا أهل الهدىٰ، الذين يجب الاقتداء بهم، فقال تعالىٰ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء، ومَن أضيف إليهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾.

وعلىٰ ذلك: فهم أهل الهدىٰ، لا غيرهم، وطريقهم من التوحيد لله، والصبر علىٰ مشاق الدعوة: واجب الاتباع، لذلك يقول المولىٰ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي: اتبع، ولا تخالف.

وبعد هذا التقرير والتوضيح لطريق السير الصحيح، يقول تبارك وتعالىٰ لحبيبه: ﴿قُل﴾ يا محمد لأهل مكة وللكفار جميعًا ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ ما أُبلِّغكم به ﴿أَجۡرًاۖ﴾ حتىٰ تَشُكُّوا في إخلاصي.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: القرآن، والبلاغ به ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ تذكرة، وموعظة، ليست لكم وحدكم، بل ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس، اليهود، والنصارىٰ، والمسلمين، في كل زمان ومكان إلىٰ يوم الدين. هؤلاء اليهود يقول عنهم ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

والمعنىٰ: ماعرف اليهود الله حق معرفته في الرحمة علىٰ عباده، حينما أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم، وذلك ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وهو التوراة، فكان ﴿نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ في زمانكم، ولكنكم كنتم ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: تكتبون ما فيه في أوراق مقطَّعة متفرِّقة، ﴿تُبۡدُونَهَا﴾ تظهرونها للناس علىٰ أنها التوراة، ولكنكم في الحقيقة ﴿تُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ من تعاليم التوراة التي لا تحبونها في هذه القراطيس، أي: الوريقات.

قل لهم يا محمد: وبهذه التوراة، ومن هذه التوراة، يا مَن تنكرونها، وتخفون كثيرًا منها ﴿عُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ من قبل مما خفي عنكم، والتبس عليكم، واختلفتم فيه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد جوابًا على سؤالك لهم ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يجيبوا: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي أنزل الكتاب، الذي جاء به موسى، وكل كتاب جاء به نبي من الأنبياء كذلك.

وبعد هذه الأقوال لهم: ﴿ذَرْهُمْ﴾ اتركهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ أي: ضلالهم، وكفرهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويسخرون، حتى يأتيهم من الله اليقين.

وعندها يعلمون: لمن العاقبة لهم أو لعباد الله المتقين؟

فالله سبحانه وتعالى: هو الذي أنزل التوراة، وهو الذي أنزل كل كتاب إلى نبي من الأنبياء.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

معنى الآية: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن كذلك ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ لهذه الأغراض: ﴿مُبَارَكٌ﴾ للبركة به، من حيث كثرة فوائده، ومنافعه، و﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، فهو يؤيد ويصدق ما فيها من التوحيد، وأصول الإسلام، قبل تحريفها، وتبديل ما فيها، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ أي: وللإنذار والتخويف من عذاب الله لمن كفر وعصى، من أهل ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، وكل مَن كان حولها من أهل الدنيا جميعًا.

هذا: ومن المعلوم أن ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ويخافون منها، ويستعدون لها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾ وبالحق الذي فيه، وهؤلاء ﴿هُمْ﴾ الذين ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وبعد تقرير هذا عن القرآن، يحدثنا ربنا جل وعلا عن الظالمين، فيقول جل وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

والمعنى: ليس هناك في البشر أظلم من: الذي يفتري على الله الكذب بصفة عامة، وبخاصة: هؤلاء الذين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وأنكروا الرسالات، والذي يدَّعي النبوَّة، ويقول ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من الله، والحقيقة أنه ﴿لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ بل هو كاذب فيما يدَّعيه، والذي يقول: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: قرآناً مثل القرآن.

هؤلاء الظالمون وأمثالهم.. يقول عنهم ربنا تبارك وتعالى، منبِّهاً، ومحذِّرًا، ومهدِّدًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ بعينيك هؤلاء الظالمين، وقت كونهم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ سكراته وشدائده، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالتعذيب، وهم يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ هاتوا أرواحكم لننزعها من أجسادكم.

ثم يقولون لهم كذلك: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان، وذلك بسبب: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من أنَّ له شريكًا، أو ولدًا.. إلخ، ﴿وَكُنتُمْ﴾ كذلك ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

إذا كان ما سبق هو ما يقال لهم من بشارة السوء عند الموت، فماذا في يوم القيامة؟ يقول الله تعالى لهم:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يعني: يقول الله لهم تحسيرًا ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والعقاب ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين، بلا مال، ولا أهل، ولا معين، حفاة عراة ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا لباس ولا غطاء ولا زخارف.

﴿وَ﴾ قد ﴿تَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما ملكناكم وأعطيناكم من المال والولد، والمناصب ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ في الدنيا، ولم تحملوا منها معكم شيئًا.

وأنتم في هذه الحال: أحوج ما تكونون إلى أي شيء !! بل أنتم في أمَسِّ الحاجة إلى مَن يشفع عنكم ﴿وَ﴾ لكننا لا ﴿نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ لله تعالى.

أين هم الآن؟ ﴿لَقَدْ﴾ تشتَّت جمعكم و﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وصلكم، ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع وبطل ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنه ينفعكم، ويشفع لكم، وينجِّيكم من هؤلاء الشركاء.

الآيات السابقة كانت في إثبات وتقرير توحيد الله تعالى، والنبوَّة، والآن تبدأ الآيات في إثبات وتقرير دلائل كمال قدرة الله، وعلمه وحكمته سبحانه، إذ يقول رب العزة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

والمعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه هو ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ أي: الذي يشق الحبة اليابسة كحبة القمح، فيخرج منها ورقًا أخضر ﴿وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ أي: الذي يشق اليابسة، مثل نواة المشمش، فيخرج منها شجراً صاعدًا في الهواء.

وهو سبحانه الذي ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ كالإنسان ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالنطفة، والعكس كذلك، حيث إنه هو لا غيره ﴿مُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالنطفة ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ الإنسان، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ المحيي المميت، الذي له كمال قدرة الواحد، الذي لا يستحق العبادة غيره، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن توحيده، والإيمان به؟

كما أنه سبحانه:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: ومن كمال قدرته كذلك أنه ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: الذي يشق بنور الصبح ظلمة الليل، وهو سبحانه الذي ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ تسكن الخلائق فيه، وتستريح من التعب في النهار، وهو سبحانه ـ كذلك ـ الذي جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾ **أي: حسابًا** للأوقات؛ حيث إنهما يجريان بحسبان، أي: بحساب دقيق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿تَقْدِيرُ﴾ أي: خلق وتخطيط وتنفيذ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ **في ملكه** ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه. ويقول أيضًا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يعني: ومن كمال قدرته، ودلائل وحدانيته أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ أي: خلق ﴿لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ أي: في أسفاركم في البر والبحر، وفي ظلمات الليل، وفي جميع منافعكم خلال ظلماتهما.

وبهذا وغيره ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وبيّنّا ووضّحنا ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة علىٰ كمال قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يدركون ذلك ويفهمونه، فيؤمنون. ويقول أيضًا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يعني: ومن كمال قدرته كذلك، أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ أي: خلقكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾ أي: فلكم مستقر في رحم الأمهات، ومستودع في ظهور الآباء، أو: فلكم مستقر فوق الأرض وأنتم أحياء، ومستودع تحتها وأنتم أموات، وبهذا وغيره ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وبيّنّا ووضّحنا ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة علىٰ كمال قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يدققون النظر، ويعملون الفكر، فيفهمون، ويؤمنون. ويقول أيضًا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يعني: ومن كمال قدرته سبحانه، أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطرًا، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فالماء واحد، والنبات مختلف الأصناف والألوان والطعم ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر اللون ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من النبات الأخضر اللون ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ مثل السنبل الذي تراكب وتراصّ حبه، ومن كمال قدرته: أنه يخرج بالماء

﴿مِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ وهو أول ما يخرج منها ﴿قِنْوَانٌ﴾ وهي: العذق الذي يحمل التمر ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة التناول، سهلة المأخذ، ومن كمال قدرته: أنه يخرج بالماء ﴿جَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ أي: أن الزيتون والرمان، بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في اللون والطعم والقدر، وكله يخرج بماء المطر.

﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ أيها الناس لتعتبروا، وتعرفوا قدرة الله ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: النبات ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ حين يخرج هذا الثمر ضعيفًا لا طعم له، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ نضجه، وكيف تغيَّر حاله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذه المشاهد والمخلوقات الإلهية: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دالة على كمال قدرته سبحانه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله تعالى، ووحدانيته.

فهل آمنوا؟ يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

بعد أن منّ الله على هؤلاء الكفار بإيجادهم، وخلق ما يحتاجون إليه في معايشهم، بيّن معاملتهم لخالقهم سبحانه:

والمعنى: أن هؤلاء الكفار ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أطاعوا الشياطين، وجعلوهم شركاء لله، ولكن: كيف يكون هذا، وهو الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وهل يُعقَل أن يكون المخلوق معبوداً؟ كما أن هؤلاء الكفار ﴿خَرَقُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: اختلقوا ونسبوا كذباً له تعالى ﴿بَنِينَ﴾ كالذين قالوا المسيح ابن الله، ﴿وَبَنَـٰتٍۭ﴾ كالذين قالوا الملائكة بنات الله.

وهؤلاء وهؤلاء: قالوا ما قالوا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين بما قالوا.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزَّه الله، وتقدَّس، وتعالى عما يصفونه، بهذا الوصف الآثم أو ذاك. حيث إنه تعالى:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

أي: هذا الإله الواحد، الذي أخطؤوا في حقه، هو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي:

خالقهما ومبدعهما علىٰ غير مثال سبق، هذا الإلٰه الواحد لا يمكن أن يكون له ولد لهذه الأسباب:

الأول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ كيف يكون له ولد، والولادة من صفات البشر، ومخترعَ البشر لا يكون بشرًا، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الثاني: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: لم تكن له زوجة، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الثالث: أنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولا يناسبه ولا يماثله شيء من خلقه، فلا يمكن إذاً أن يكون له ولد.

الرابع: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ما من شيء خلقه إلَّا وهو عليم به، وبمصالحه، غير محتاج إليه، بل غني عن كل شيء، فلا يحتاج إلىٰ الولد، فلا يمكن إذًا أن يكون له ولد. إنما هذا الإلٰه هو:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يعني: الموصوف بكل ما سبق من صفات القدرة والعلم والوحدانية هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي أنشأكم ورعاكم وربَّاكم حتىٰ صرتم إلىٰ ما أنتم فيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي خلق كل شيء في الماضي، والذي يستحق العبادة وحده، وهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الحاضر والمستقبل، والذي يستحق العبادة وحده، وما دام هذا الإلٰه بهذه الأوصاف ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ولا تعبدوا غيره.

كما أنه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب علىٰ كل شيء من الأرزاق والآجال والأعمال. إضافة إلىٰ أنه سبحانه:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

والمعنىٰ: لا تحيط به أبصار المخلوقين، وهو يحيط بهم علماً وقدرة، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بأوليائه، والعالم بدقائق الأمور ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بهم، والعليم بظواهر الأشياء وخفاياها. ثم يقول ربنا علىٰ لسان محمد ﷺ، وهو يقول لقومه:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

يعني: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ أي: دلائل ـ بعضها يُرىٰ بالعين الباصرة، وبعضها بالبصيرة ـ علىٰ وحدانية الله، وقدرته، وضرورة الإيمان به، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ هذه الدلائل منكم، ففهمها وانتفع بها، فآمن ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ ثواب ذلك، ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عنها منكم، وضل، ولم يؤمن ﴿فَعَلَيْهَا ۚ﴾ أي: علىٰ نفسه، وبال ضلاله، وضرر عناده، وكل منكم له اختباره وحريته، في الضلال والهداية.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أراقب أعمالكم، أو أجازيكم عليها، إنما أنا مُبلِّغ ونذير.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني: وهكذا فعلنا ﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ نكرِّرها، ونؤكِّدها، ونوضِّحها؛ حالًا بعد حال، ولونًا بعد لون، لماذا؟

أولًا: ليعتبروا، فيؤمنوا.

ثانيًا: ليقول بعضهم ﴿دَرَسْتَ﴾ كُتُب أهل الكتاب، ونقلت ذلك منها؛ فيزداد كفرًا علىٰ كفر.

ثالثًا: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق؛ فيزدادوا إيمانًا علىٰ إيمانهم.

ثم يتوجه رب العزة بالخطاب إلىٰ محمد يثبِّته، ويوضِّح له منهج الحق في الدعوة وطريق الصواب، حيث يقول جل وعلا:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يعني: اتبع يا محمد ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ أي: في القرآن والكلام ـ كذلك ـ لكل مَن اتبعه ﷺ، حالة كونك ثابتًا مداومًا علىٰ توحيد الله، الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي الوقت ذاته ﴿أَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا تتأثر بهم، ولا تهتم بأقوالهم، ولا تلتفت إلىٰ رأيهم. هؤلاء المشركون يقول عنهم سبحانه:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكهم ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ ولكنه علم منهم اختيار الشرك، فشاء لهم ذلك، فأشركوا، فلا تتأثر بهم، ولا تهتم بأقوالهم، ولا تلتفت إلىٰ رأيهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ مراقبًا لهم، فتؤاخذ بجرائمهم.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾ كذلك ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم، وتدبِّر مصالحهم، وتجبرهم علىٰ الإيمان.

روي أنه لمَّا نزل قوله تعالىٰ في حق الكفار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد لَتَنْتَهِينَّ عن سب آلهتنا، أو: لَنَهْجُونَّ ربك، فنهاهم الله عن أن يسبوا أوثان الكفار، حتىٰ لا يسبوا الله عدواً بغير علم، وذلك في هذه الآية:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾ أيها المؤمنون: المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين يعبدون غير الله، أي: الأصنام وأشباهها من الكواكب وغيرها، حتىٰ وإن كان سب آلهتهم فيه تحقير لها!! لئلا يكون ذلك سببًا لسب الله، تعالىٰ الله عن ذلك، ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ أي: علىٰ جهالة بالله، وبما يجب له من التعظيم، وذكر كل كمال يليق به سبحانه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين، ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر، والإيمان والضلال، فأتوه وعملوه وأحبُّوه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ويجازيهم عليه. هؤلاء المشركون يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

معنىٰ الآية: أن هؤلاء الكفار ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: غاية اجتهادهم في القسم وتأكيدهم له.

علىٰ ماذا أقسموا؟ أقسموا ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مما اقترحوا علىٰ النبي ﷺ أن يأتيهم بها ليؤمنوا ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إذا جاءتهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ التي تقترحونها، وغيرها ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ينزِّلها كما يشاء، وإنما أنا فقط نذير مبين، ولكن: ماذا لو جاءتهم الآيات، بل لماذا لا تأتيهم؟ يقول الله بيانًا لما سيكون ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريكم بإيمانهم إذا جاءت، يعني: أنتم لا تدرون ذلك، ولا تعرفونه؛ لأنه غيب، والغيب عند الله، والحقيقة ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم يبيِّن ربنا تبارك وتعالىٰ ـ لِمَ لا يؤمنون بقوله:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يعني: هؤلاء لا يؤمنون، حتىٰ ولو جاءتهم الآيات؛ لأننا ﴿نُقَلِّبُ﴾ نحوِّل قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه، وعن الهدى فلا يتبعونه، ونقلب كذلك ﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عنه، فلا يؤمنون به، وليس عدم إيمانهم ببعيد ولا بغريب، فسيكون في هذه الحال ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عندما نزلت آياتنا أولًا، فكذلك: لن يؤمنوا به إذا جاءت الآيات الآن، ولذلك ﴿نَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في ظلمهم لأنفسهم وبعدهم عن الحق ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتردَّدون، ويتحيَّرون، عدلًا من الله تعالىٰ، علىٰ اختيارهم الضلال علىٰ الهدى، والكفر علىٰ الإيمان.

لمَّا أقسم الكافرون ـ فيما سبق ـ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مما اقترحوا ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهذا كذب منهم، بدليل أنهم لم يؤمنوا من قبل.

لذلك يرد رب العزة، ويكشف زيف ادعاءاتهم هذه بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا﴾ استجبنا لهم، و﴿نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وكذلك ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما اقترحوا في قولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦].

وأيضًا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: فوجًا بعد فوج، يشهدون بنبوَّتنا، وصِحَّة ما بشرَّنا به وأنذرنا، لو فعلنا كل ذلك: ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ أهلًا للإيمان حتىٰ يؤمنوا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم فيؤمنون، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ إنهم لا يؤمنون، إلَّا بمشيئة الله.

ثم يبيِّن رب العزة ـ تخفيفًا عن حبيبه، مؤانسةً له ـ أنَّ العداء لرسل الله ليس خاصًّا به، حيث يقول عز وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا لك أعداء من المشركين ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ﴾ ممن سبقوك ﴿عَدُوًّا﴾، وذلك: ابتلاء، وإظهارًا لفضيلة الثبات، وتحصيلًا للأجر والثواب، لذلك: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: ﴿شَيَٰطِينَ﴾ من الإنس، وشياطين من الجن، والشيطان كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن، هؤلاء الشياطين ﴿يُوحِى﴾ أي: يوسوس ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ماذا يوسوسون؟ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: الكلام المزيَّن والمخلوط بالباطل والأكاذيب، ولكن: لماذا يوسوسون؟ ﴿غُرُورًا﴾ أي: ليغروهم، ويغدروا بهم، ويضلُّونهم عن الحق والصواب.

واعلم أن هذا الإيحاء بالباطل بين الجن والإنس: لا يتم إلَّا بمشيئة الله، إذْ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، لذلك: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اتركهم وما يختلقونه عليك من الأكاذيب، ومن المعلوم أن هذه الآية وأمثالها في السور المكية كانت قبل الأمر بقتال المشركين.

اعلم أن هذا الإيحاء بزخرف القول بين شياطين الإنس والجن كان لأربعة أغراض:

أحدهما: لإغراء الكافرين بالباطل، كما في الآية الفائتة. والباقي في قوله تعالىٰ:

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

في هذه الآية الكريمة: ذِكر لباقي أهداف الوسوسة بالباطل، وهي علىٰ النحو التالي، بعد ذِكر الأول في الآية السابقة:

الثاني: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لتميل إليه قلوب هؤلاء.

الثالث: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: يستريحون إليه، ويؤمنون بما فيه.

الرابع: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي: ليفعلوا ما يريدون من المعاصي والآثام.

ويلاحظ: أن ترتيب هذه الأغراض في الآية جاء علىٰ غاية الفصاحة؛ لأنه أولًا:

يكون الخداع بـ﴿يُوحِى﴾ [الأنعام: ١١٢]، فيكون الميل ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾، فيكون الرضىٰ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، فيكون الفعل ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾.

لذلك: فليحذر المسلم من هذا الخداع، حتىٰ لا يحدث ما يليه.

طلب الكفار من النبي ﷺ يومًا أن يجعل بينه وبينهم حَكَمًا من أحبار اليهود، أو أساقفة النصارىٰ؛ ليخبرهم بما في كتابهم من أمر نبوَّته ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكفار: ءأطلب حاكمًا بيني وبينكم غير الله سبحانه وتعالىٰ، ليفصل ويبيِّن المُحِقَّ مِنَّا من المبطل؟ كيف يحدث هذا؟ مع أن الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿مُفَصَّلًا﴾ موضِّحًا فيه الحق من الباطل.

كما أن المنصفين من ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كالتوراة، والإنجيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ويعترفون، كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، لذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها السامع ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين.

وبعد أن بيَّن ربنا كمال القرآن بإضافة إنزاله إلىٰ الله، يبيِّن سبحانه كمال هذا القرآن ـ كذلك ـ من حيث ذاته، فيقول جل جلاله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: بلغت الغاية في الكمال والتمام، من حيث ما أخبر به ربنا، وأمر به، ونهىٰ عنه من الأحكام والشرائع، ﴿صِدْقًا﴾ في أخباره ﴿وَعَدْلًا ۚ﴾ في أحكامه.

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بتحريف، أو زيادة، أو نقص؛ مِصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقال ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُفْعَل، فيجازي علىٰ القول وعلىٰ الفعل.

ثم يبيِّن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ موقف المسلم من اقتراحات الكافرين، ومن وساوس الشياطين؛ حيث يقول:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

والمعنىٰ: لا تطع الكافرين في اقتراحاتهم، ولا الشياطين في وساوسهم، خاصة وأنهم أكثر مَن في الأرض، حيث إنك إن تطعهم ﴿يُضِلُّوكَ﴾ ويبعدوك ويفتنوك ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو دينه.

هؤلاء: ليسوا علىٰ علم، ولا عقل، وإن ادعوا ذلك، وهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فيما هم فيه، وما هم كذلك ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون فيما يقولون، فلا تطعهم، ولا تصدِّقهم، ولا تتبعهم.

بل: أطع ربك، وصدِّق نبيَّك، واتبع قرآنك، حيث:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

والمعنىٰ: أن الله لا تفيد عنده الدعاوىٰ الكاذبة، حيث إنه أعلم بمن يضل عن سبيله، ويختار الضلال، وهو أعلم بالمهتدين، الذين اختاروا الهداية فَقِهِم لذلك.

ولمَّا نهىٰ الله عز وجل عن اتباع المضلِّين، الذين كان من إضلالهم: تحريم الحلال، وتحليل الحرام، قال:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

أي: لا تتبعوا الكفار يا مسلمون، و﴿كُلُوا۟﴾ حلالًا لكم ﴿مِمَّا﴾ ذبح، و﴿ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه، ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ وبأحكامه مصدِّقين وملتزمين. ثم قال:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يعني: وما الذي يمنعكم أن ﴿تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح، خاصة: وأن الله تعالىٰ ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ في كتابه ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ الآية [المائدة: ٣] ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من هذا المحرَّم، فهو حلال لكم.

وهذا الذي ذكر اسم الله عليه ليس من هذا الذي حرم عليكم، واعلموا: أن ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ فيحرِّمون ويحلِّلون ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ وشهاداتهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بالشريعة، وهذا منهم عدوان علىٰ أحكام الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هؤلاء، فيعاقبهم أشد أنواع العقاب.

ثم يهدِّد الله تعالىٰ الذين يضلون بأهوائهم، فيرتكبون المعاصي، بقوله عز وجل:

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: اتركوا الإثم كله، ظاهره وباطنه، والمعاصي كلها، صغيرها وكبيرها، ومن المعاصي: تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

حيث ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ ويقترفونه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة إن لم يتوبوا عن معاصيهم جزاءً سيئًا، والسبب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾.

وإذا كان الله قد أباح أكل ما ذبح وذكر اسم الله عليه، فإنه ينهىٰ عن أكل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه، بقوله سبحانه:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

المعنى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ يا مسلمون ﴿مِمَّا﴾ مات أو ذبح و ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ خروج عن طاعة الله، لو أكلتموه.

وفي هذا الموضوع ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ من الجن ﴿لَيُوحُونَ﴾ أي: ليوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الإنس ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ ويناقشوكم في أكل الميتة ليقنعوكم، فتطيعونهم في أكلها.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في ذلك ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم، حيث إن مَن اتبع غير الله في دينه، ورضي بشرع غير شرعه فقد أشرك.

ثم يضرب الله مثلًا للمؤمن الذي أحيا الله قلبه بالإيمان، والكافر الغارق في الظلمات، فيقول جل جلاله:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

والمعنى: هل يستوي ﴿مَن كَانَ مَيْتًا﴾ أي: مَن كان كافرًا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإيمان، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: يقينًا كالنور ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ آمنًا من جهتهم، لا خوف من أحد غير الله، هل يستوي هذا مع ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يتخبط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لا يفارقها، لا يستويان.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زيَّن الله للمؤمن الإيمان ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الآثام والمعاصي والكفر.

وبعد أن بيَّن ربنا أن الكافرين هم أصحاب المعاصي، يبيِّن عز وجل أن هؤلاء الكافرين هم أكابر المجرمين في كل قرية ومكان، في قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

والمعنىٰ: وكما جعلنا فُسَّاق مكة وكفارها، أي: أكابرها ورؤساءها جعلنا في كل قرية مجرميها وفُسَّاقها أكابر، وكان ذلك: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: في كل قرية هم فيها، وذلك بالتجبُّر علىٰ الناس، وإيذائهم، والعمل بالمعاصي.

ولكنهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ بهذا الشكل، وعلى هذا النحو ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فقط، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ضررهم هذا يحيق ويحيط بهم وحدهم. ثم قال تعالىٰ:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ **ذات يوم:** لو كانت النُّبوَّة حقًّا لكنت أنا أَوْلىٰ بها منك؛ لأني أكبر منك سنًّا، وأكثر منك مالًا، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أي: أهل مكة الكفار ﴿ءَايَةٌ﴾ تدل علىٰ صدق النبي ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ﴾ به ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ من النُّبوَّة لنا وفينا، والوحي إلينا، وذلك: حسدًا منهم للنبي ﷺ.

وكان الجواب: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: يعلم الموضع الصالح، والمرء الصالح لوضعها فيه، فيضعها، وهؤلاء ليسوا أهلًا لها.

والأمر لا ينتهي عند ذلك، بل ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بهذا القول ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ذل عند الله والناس في الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

وبعد أن قرَّر الله تعالىٰ: أن الهدىٰ من الله، وأن الضلال من الله، يذكر الله عز وجل علامة مَن يريد هدايته، وعلامة مَن يريد ضلاله، وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ للإيمان يهديه، وعلامة ذلك: أن ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ أي: يوسِّع قلبه لقبول الإيمان، وينوِّر بصيرته لعمل الخير.

وأما ﴿مَن يُرِدْ﴾ الله ﴿أَن يُضِلَّهُۥ﴾ عن الإيمان يضله، وعلامة ذلك: أن ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ لا يقبل الإيمان، بل يختنق به، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كمن يصعَّد في السماء، حتىٰ يصل إلىٰ درجة الاختناق.

وهكذا: ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

يعني: هذا الدين، أو هذا القرآن هو ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه وهديه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ فيه ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون وينتفعون بما فيه. هؤلاء القوم:

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

والمراد: لهؤلاء الذين يذَّكَّرون فينتفعون بما في القرآن ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهي الجنة، التي لا ينقطع سلامها ولا سلامتها، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مُعدَّة مهيَّأة عنده، مضمونة منه.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: محبُّهم، وناصرهم علىٰ أعدائهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم في الآخرة بالنجاة والفوز؛ بسبب أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، هذا عن الصالحين، فماذا عن شياطين الإنس والجن؟ يقول ربنا عز وجل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ الله، أي: الإنس والجن ﴿جَمِيعًا﴾.

وهذا الخطاب التوبيخي لعصاة الجن، يُقال لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بإغوائكم لهم، وإضلالكم إياهم، وجعلهم تابعين لكم.

ومع أن الكلام مع شياطين الجن!! والردّ مُتوقَّع ومطلوب منهم!! إلَّا أنهم لا يتكلمون،

بل ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ الذين أطاعوهم، وخدعوا بوسوستهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ معترفين بما حدث: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ زيَّنوا لنا الشهوات فاستمتعنا بها، واستمتعوا بطاعتنا لهم في إغوائهم لنا، ثم قالوا متحسِّرين ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: يوم القيامة للحساب والعقاب.

ويكون الحُكْمُ العادل، يقول الله تعالىٰ لهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ومأواكم، ودار إقامتكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أبدًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمن علم سبحانه أنهم يؤمنون، فهؤلاء: لا يدخلونها أصلًا، أو يدخلونها فترة ثم يخرجون منها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيما يفعل بأعدائه وأوليائه ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

هكذا تمتَّع الإنس بالجن، والجن بالإنس:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

وهكذا كما متَّعنا الإنس بالجن، والجن بالإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ أي: نسلِّط بعضهم علىٰ بعض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والآثام.

وبعد أن وبَّخ الله معشر الجن، فيما سبق؛ لإغرائهم الإنس يوبِّخ عز وجل الجن والإنس معًا؛ لضلالهم في أنفسهم، فيقول جل جلاله:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

يعني: يوم القيامةُ يقال من باب التوبيخ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ أي: نذر ﴿مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يقرؤون كتبي، ثم يوضِّحونها ويبيِّنون ما فيها من آيات التوحيد والتشريع؟ وكذلك ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي: يخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ﴾ ربكم، في ﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهو يوم القيامة؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الجن والإنس في الجواب علىٰ هذا السؤال التوبيخي لهم: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أنه قد أتتنا الرسل، وبلَّغونا، وخوَّفونا، ولكنَّا كنَّا عن هذا غافلين، وللحق معاندين.

وهكذا ﴿غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخرفها وبريقها فلم يؤمنوا، ﴿وَشَهِدُوا۟﴾ اليوم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

ولماذا كان إرسال الرسل، وقراءة الآيات منهم على أقوامهم؟

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

يعني: كان إرسال الرسل من الله؛ لأن ربنا تعالىٰ لا يهلك البلاد، بسبب ظلمهم ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لا يعرفون الحق عن طريق الرسل، بل لابد من إرسال الرسل إليهم، يعلِّمونهم، وينذرونهم، فإن آمنوا أثابهم الله، وإن كفروا عذبهم الله.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ واحد من الفريقين الطائعين والعصاة، سواء من الإنس أو الجن ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مراتب ومنازل، بسبب ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ من خير أو شر.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بساهٍ عما يعمل هؤلاء أو هؤلاء، وفي ذلك وعد بالخير للطائعين، ووعيد بالشر للعاصين.

وإرسال الرسل من الله تعالىٰ رحمة:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

يعني: ﴿وَرَبُّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عنك، وعن عبادتك ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ علىٰ خلقه، بإرسال الرسل، وإيصال المنافع إليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الكفار، بإهلاككم واستئصالكم دفعة واحدة؛ لأنكم عاندتم وكفرتم، ﴿وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم﴾ من الخلق ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ ممن لا يعاندون ولا يكفرون، فلا تستغربوا ذلك أو تستبعدوه، فقد حدث قبلاً، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾ أنتم ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أذهبهم الله، وأبقاكم. علىٰ كل حال:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

لمَّا قالوا: مَن مات فقد فات.

قال تعالىٰ: لا، بل ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والحساب والعذاب ﴿لَءَاتٍ﴾ لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لنا، أو هاربين منا، بل سنحشركم ونحاسبكم ونجازيكم. ويا محمد:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين الكافرين ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على راحتكم وما تحبون، وكيفما تريدون من الكفر والعصيان، وهذا ظلم، وأمَّا أنا فـ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على راحتي، وما أحب، وكيفما أريد من الإيمان والطاعة، وهذا عدل.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم وأنا، في نهاية الأمر ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ﴾ ونتيجة حسنى، في ﴿ٱلدَّارِ﴾ الآخرة أنحن أو أنتم؟ ولكن حسب هذه القاعدة الإلٰهية، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا ينجو ولا يسعد الظالمون الكافرون، وقد ظلمتم وكفرتم.

ولمَّا بيَّن ربنا قبح طريقتهم في إنكار البعث، عقب ذلك بذكر أنواع من أحكامهم الفاسدة تنبيهاً على ضعف عقولهم، حيث قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

والمعنى: أن الكفار قسَّموا ما ﴿ذَرَأَ﴾ الله من الزرع والأنعام، أي: ما خلق إلى قسمين: قسم جعلوه لله يصرفونه على الضيوف والمساكين، وقسم لأصنامهم يصرفونه على خدمتها، وهذا من اختراعهم وكذبهم؛ لأنَّ الله لم يأمر بذلك ولم يشرِّعه.

ولكن الأمر الأعجب أنهم كانوا عند الإنفاق لِمَا خلق الله، وأنعم عليهم يفرِّقون بين ما لله وما لأصنامهم.

فما كان من نصيب أصنامهم: لا يصل منه شيء أبدًا لله تعالى، بل يحصوه، ويعدُّوه، ويحفظوه لأصنامهم بغاية العناية، أما ما كان لله ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أصنامهم، ويحرمون منه الضيوف والمساكين.

حقًّا: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: بئس الحكم حكمهم، وساء الفعل فعلهم.

وكما زيَّنت الشياطين لهؤلاء الكفار هذا التقسيم الكاذب ـ كما أشارت الآية السابقة ـ زيَّنت لهم الشياطين قتل أولادهم خشية الفقر، يقول الله سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يعني: وكما زيَّن ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شركاؤهم من الشياطين تقسيم ما خلق الله: بين المولىٰ عز وجل، وأصنامهم كذبًا وزورًا وبهتانًا، زيَّنوا لهم ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ خوفًا من الفقر، ووأد البنات خوفًا من العار؛ ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويفنوهم عن طريق إهلاك نسلهم، ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا، ويُدْخِلوا الشك عليهم في دينهم الذي كانوا عليه، وهو دين إسماعيل عليه السلام.

علىٰ أية حال: هذا لا يتم منهم إلَّا بمشيئة الله، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولذلك: علم سبحانه أنَّهم يحبونه، فشاء لهم ذلك ففعلوه.

ولذلك: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: اتركهم يا محمد وما يختلقونه، فإنَّ ضرر ذلك عائد عليهم لا عليك.

وأنت أيها المسلم ابتعد عنهم وعن سلوكهم، واحمد الله علىٰ الهدىٰ الذي أنعم الله عليك به.

وأيضًا كما أخطؤوا في قتل أولادهم: أخطؤوا كذلك في التحريم والتحليل من عند أنفسهم بالنسبة للزروع والأنعام، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يعني: هؤلاء الكفار شرَّعوا لأنفسهم وبأنفسهم تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، حيث زعموا ونسبوا ـ ما زعموه ـ كذباً وافتراءً علىٰ الله.

أن هناك أنعامًا يعني: إبلًا، وأبقارًا، وأغنامًا، ومزروعات ﴿حِجْرٌ﴾ أي: حرام ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ﴾ أي: لا يطعمها أكلًا، ولا يستعملها ركوبًا إلَّا مَن شاءوا هم له ذلك، وأن

هناك أنعامًا: ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ على الركوب، مطلقًا، وأن هناك ـ كذلك ـ أنعامًا: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ لا عند الركوب، ولا عند حلبها، ولا.. في أية حال من أحوالها.

هؤلاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله سوءًا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من تقسيماتهم هذه، ونسبتها زوراً إلى الله تعالى.

ثم يذكر المولى سبحانه نوعًا آخر من نتائج كفرهم، فيقول جل جلاله:

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

أي: قال الكفار ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ التي حرَّموها من عند أنفسهم ونسبوا ذلك لله، فكذَّبهم الله بقوله:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

يعني: أولاد هذه الأنعام إذا ولدت حية: فهي حلال للرجال يأكلون منها، حرام على النساء لا يأكلن منها، وأما إذا ولدت ميتة: فيشترك فيها الذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ ربنا على وصفهم هذا الكذب من التحليل والتحريم على الله جزاء سيئاً ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في عقابهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعقيدتهم الفاسدة.

وبعد، فهذه هي النتيجة لمَا فعلوا:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يعني: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ مخافة الفقر، بمنع النسل، ووأدوا بناتهم، مخافة العار، وخسارتهم في الدنيا: بنقص عددهم وزوال ما أنعم الله عليهم، وفي الآخرة: بالعذاب الأليم، وقد فعلوا ذلك ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لخفة عقولهم، وتفاهة تفكيرهم، ومن غير دليل عندهم يحتجُّون به أن الرزق بيدهم، سوى جهلهم بأنَّ

الرازق هو الله تعالىٰ، وكذلك: خسروا في الدنيا والآخرة، لتحريمهم ما رزقهم الله من النعم، وادعائهم زورًا أن هذا التحريم من الله.

هؤلاء الكفار ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ وتاهوا عن الصواب والطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه مرة أخرىٰ، بعد أن ضلُّوا عنه.

وبعد ذلك: يبيِّن الله عز وجل أنه الخالق لكل شيء، من الزروع، والثمار، والأنعام، فيقول عز شأنه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ خلق البساتين المنوَّعة فيها النباتات المعروشات، المبسوطات علىٰ وجه الأرض، أو المرفوعات علىٰ عريش، وفيها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: ما قام علىٰ ساق كالأشجار، وهو أيضًا: الذي خلق ﴿ٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ في اللون، والطعم، والرائحة، وغير ذلك، وهو كذلك: الذي خلق ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ شجرًا وورقًا ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ثمرًا، ولونًا، وطعمًا.

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: يباح لكم أن تأكلوا من ثمار هذه الأنواع المذكورة، ولكن عليكم أن تُعطوا زكاة هذه النعم، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وسواء كان هذا الحق زكاة أو صدقة، فهو واجب الأداء يوم الحصاد، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في الأكل، حتىٰ لا تُصابوا بالضرر، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ كذلك في التصدُّق، حتىٰ لا تضيِّعوا حق الأولاد.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في البخل، أو في العطاء.

ثم يقول ربنا لإبطال ما يقول به الكافرون علىٰ الله في شأن الأنعام من التحليل والتحريم:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

يعني: وخلقنا لكم ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ التي هي الإبل والبقر والغنم ﴿حَمُولَةً﴾ تحملكم وتركبون عليها ﴿وَفَرْشًا﴾ تأكلون وتحلبون منها.

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من هذه الأنعام، ومن الزروع، والثمار المذكورة في الآية السابقة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: طرقه في التحليل والتحريم.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ شديد العداوة ﴿مُّبِينٌ﴾ واضحها؛ حيث لا تخفىٰ عداوته. لذلك: فاحذروه، وابتعدوا عنه، ولا تطيعوه.

وليكن معلومًا أنَّ هذه الحمولة والفرش من الأنعام:

﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يعني: خلقنا لكم حمولة وفرشًا من الأنعام ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ﴾، ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ خلقنا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ وكذلك ﴿مِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ خلقنا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ أي: من كل منهما زوجين اثنين، أي: واحد ومعه زوج له من جنسه.

ولأنهم ـ أي: الكفار ـ كانوا يحرِّمون ذكور هذه الأنعام تارة وإناثها تارة أخرىٰ، وأولادهما تارة ثالثة، وينسبون هذا التحريم لله تعالىٰ: فقد أنكر الله عليهم ذلك وكذَّبهم بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار موبخًا ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ ربنا، ﴿أَمِ﴾ حرَّم ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ أم حرَّم ما تحمل إناث هذه الأنعام في بطونها؟ قل لهم: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أخبروني كيف عرفتم أن الله حرَّم ذلك، إن كان عندكم علم بهذا ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تدَّعون من التحريم والتحليل المنسوب لله تعالىٰ منكم، وطبعًا ليس عندهم أيُّ علم بهذا. كذلك:

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

والمعنى: وبقية الأزواج الثمانية التي خلقناها لكم من الأنعام ﴿مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ أي: زوجين من كل منهما.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ منهما، ﴿أَمِ﴾ حرم ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرَّم ما تحمل إناثهما..؟ ولمَّا ثبت أنَّه لا علم حقيقي عندهم بهذا التحريم في الآية السابقة : أثبت سبحانه أنَّهم لم يشاهدوا هذا التحريم أيضًا.

حيث يقول متحدِّيًا لهم متهكِّمًا بهم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: حاضرين هذا التحريم وهو يوحىٰ به إلىٰ رسول من الله، علماً بأنكم لا تؤمنون بالرسل؟ ولأنه لا علم عندكم من وحي، ولا مشاهدة منكم لوحي، فأنتم كاذبون، ظالمون، بل أظلم الظالمين.

حقًّا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا أظلم من هذا، ولذلك يستحقون ما يقول عنهم ربهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ويا محمد:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار، الذين يحرِّمون ويحلِّلون من عند أنفسهم وبأهوائهم ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ في هذه السورة ولا في القرآن، ساعة نزول هذه الآية ﴿فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من الله تعالىٰ، الذي بيده التحليل والتحريم، شيئًا ﴿مُحَرَّمًا﴾ مما ذكرتم، قد حُرِّم ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: يأكله ﴿إِلَّآ﴾ هذه الأشياء الأربعة:

﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ فهذا أكله حرام، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: سائلًا، منزوعًا من

الحيوان، فهذا حرام، وأما الكبد والطحال، وبقايا الدم في اللحم والعروق فهي حلال، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وكل شيء منه فهو حرام، وذكر اللحم فقط أهم شيء يراد منه، وتحريمه كان؛ لأنه ﴿رِجْسٌ﴾ أي: نجس حرام، ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني: ما ذبح وذكر عليه غير اسم الله؛ لأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله.

ومع ذلك، وتيسيرًا من المولىٰ علىٰ عباده، فإن هذه المحرَّمات المذكورات: يباح الأكل منها، وفق قوله تعالىٰ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: دعته الضرورة الشديدة إلىٰ أكل شيء منها، فله أن يأكل مراعيًا أمرين: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ علىٰ مضطر مثله، فيظلمه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: أكل أكثر من حاجته التي تنتهي بها ضرورته.

فمن اضطر لذلك وأكل من هذه المحرمات: فلا يؤاخذ علىٰ ذلك، حيث إن ﴿رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ المضطر، بل يرحمه بهذا التشريع.

وفي مجال التحليل والتحريم في الأنعام، وبعد أن بيَّن لنا ربنا عز وجل موقف الكفار المشركين من العرب، من قضية التحليل والتحريم في الأنعام، والردّ عليهم، يرد الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أيضًا علىٰ اليهود، الذين حرَّفوا دينهم، وغيَّروا تعاليمهم، وحلَّلوا وحرَّموا بأهوائهم، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

يعني: حرَّم الله علىٰ اليهود خاصة، دون ما عداهم من الأوَّلين والآخرين، هذه الأشياء: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ﴾ أي: كل ما له إصبع من دابة أو طائر، فهو حرام عليهم لحمه وشحمه، وكل شيء فيه، وكذلك: شحوم البقر والغنم حرام عليهم، ولكن يستثنىٰ من هذه الشحوم المحرمة: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ من الشحوم فهو حلال، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي الأمعاء فهي حلال، ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ﴾ من الشحوم فهو حلال.

وبهذا يكون الذي حُرِّم عليهم من الشحوم: شحم الكرش والكلىٰ، وما عدا ذلك فهو حلال، وهذا الذي حرَّم الله عليهم في الآية: هو من باب التضييق عليهم، يقول ربنا: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا التحريم ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ به عقابًا لهم، وما ذلك إلَّا ﴿بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾

وظلمهم، حيث كانوا كلما ارتكبوا معصية من معاصيهم الكثيرة: عوقبوا بتحريم شيء مما أحلَّ الله لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدَّعون أنَّها مِمَّا حرَّم علىٰ الأمم قبلهم، فكذَّبهم الله تعالىٰ فيما زعموا. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما كذبناهم فيه، وأخبرنا به عنهم.

ثم يرشد المولىٰ تبارك وتعالى حبيبه إلىٰ التصرُّف الصحيح مع هؤلاء اليهود، بقوله:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يعني: ﴿فَإِن﴾ كذبك يا محمد هؤلاء اليهود الذين يعاصرونك، والذين تدعوهم إلىٰ الإيمان فيما جئت به وأوحي إليك من الإسلام، ومن جملته التحليل والتحريم الذي ذكرناه عنهم في الآيات السابقة، إن كذبوك: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿رَبُّكُمْ ذُو﴾ صاحب ﴿رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاقبكم فور تكذيبكم، وحتىٰ لا يغترُّوا بهذه الرحمة التي هي إمهال لهم لا إهمال لعذابهم، قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ أي: عقابه إذا جاء ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يكذبون رسل الله، وهكذا بيَّن الله تعالىٰ كذب كل مَن زعم شيئًا من التحليل والتحريم.

وبهذا البيان لزمتهم جميعًا من مشركين ويهود الحجة، وقام عليهم الدليل.

ولمَّا ظهر فساد كلامهم، وبطلان موقفهم من التحليل والتحريم، أخبر الله عنهم بما سيقولونه عنادًا، حيث قال عز وجل:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

وهكذا لمَّا سقطت أدلتهم: تعلَّلوا بمشيئة الله!! والمعنىٰ: ﴿سَيَقُولُ﴾ لك ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إظهارًا وتأكيدًا أنهم علىٰ الحق، وليس اعتذارًا عن ارتكابهم هذه المعاصي ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكنا به، وعدم تحريمنا لما حرَّمنا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ كذلك ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ ولذلك: فهو راضٍ عنا، وعن إشراكنا، وعن تحريمنا وتحليلنا، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم، وتعلَّلوا ـ كذبًا ـ بمشيئة الله، فلم ينفعهم ذلك ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أنزلنا عليهم العذاب.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ما يلي:

أولًا: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: هل عندكم علم صحيح من وحي أو خبر صادق بما تدَّعونه، فتظهروه لنا؟ ولن يجيبوا؛ لأنه ليس عندهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون على الله فيما يدَّعون.

ثانيًا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ﴾ عليكم، وهي الدليل القاطع الواضح من إنزال الكتب، وإرسال الرسل إليكم، وليس لكم أية حجة، ولا أدنى دليل على الله، ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ الله هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه علم رغبتكم في الضلال، ولذلك لم يشأ هدايتكم.

ثالثًا: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ هاتوا شهداءكم الذين يشهدون معكم فيما زعمتم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذي حرَّمتم، ﴿فَإِن﴾ جاءوا بشهداء، و ﴿شَهِدُوا۟﴾: فإنهم شهود زور، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ أي: فلا تصدقهم وتسلم لهم، فتكون كمن شهد معهم زورًا.

هؤلاء يا محمد قد اتبعوا أهواءهم، لذلك: ﴿لَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ واتبعوا أهواءهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ والذين ﴿هُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسوُّون به خلقه.

رابعًا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

في هاتين الآيتين عشرة أحكام: خمسة بصيغة الأمر، وخمسة بصيغة النهي، وهذه الأحكام العشرة التي فيها: لا تختلف باختلاف الأمم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هنَّ محكمات، لم ينسخهنَّ شيء في جميع الكتب، وهنَّ محرمات علىٰ بني آدم كلهم، من عمل بهنَّ: دخل الجنة، ومن تركهنَّ: دخل النار.

ومعنىٰ الآيتين: يا مَن تحرِّمون وتحلِّلون، وتَنْسبون ذلك زورًا وكذبًا لله تعالىٰ: تعالوا أقرأ ما حرَّم ربكم عليكم حقًّا ويقينًا، ولا شك فيه، ولا ظنًا، ولا كذبًا، كما تزعمون أنتم، بل هو وحي من الله تعالىٰ.

ويلاحظ ابتداء: أن الأوامر المذكورة فيما يلي مؤولة إلىٰ نواهٍ، فيصير المحرَّم هو عكسها، ويتضح ذلك أكثر فيما يلي من البيان والتوضيح، وهذه الأحكام العشرة بيانها كالآتي:

الأول: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يعني محرَّم عليكم: الشرك بالله.

الثاني: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يعني محرَّم عليكم: ترك الإحسان إلىٰ الوالدين، ومن باب أَوْلىٰ عقوق الوالدين.

الثالث: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ الآية.. يعني.. محرَّم عليكم: قتل الأولاد ـ بأية وسيلة ـ بسبب الفقر، أو خوف الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ حيث إنَّ رزق الخلق علىٰ خالقهم، وليس علىٰ بعضهم البعض.

الرابع: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآثام والمعاصي كلها ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ واطلَّع عليه الناس، أو كان بينك وبينهم ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ولم يطلَّع عليه إلَّا الله، أو كان بينك وبين الله، يعني: محرَّم عليكم ارتكاب الفواحش كلها.

الخامس: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقصاص، وحد الرِّدة،

ورجم الزاني المحصن، الذي يقوم به ولي الأمر، يعني: محرَّم عليكم قتل النفس بغير الحق.

وفي نهاية هذه المحرمات الخمسة الظاهرة الواضحة، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ذلكم المذكور مما تُلِيَ عليكم ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فوائد هذه التكاليف في الدنيا والآخرة.

السادس: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلَّا بالصفة الحسنة، والتصرُّف النافع، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فسلِّموه له، وادفعوه إليه، ليتصرف فيه بنفسه، يعني: محرَّم عليكم أكل مال اليتيم.

السابع والثامن: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، والمعنىٰ: محرَّم عليكم إنقاص الكيل، ومحرَّم عليكم أيضًا: إنقاص الميزان ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: الوصول إلىٰ العدل في ذلك قدر الطاقة.

التاسع: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ أي: فاصْدُقوا، حتىٰ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه، في شهادة أو غيرها ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: من الأقارب.

يعني: ومحرَّم عليكم الكذب وشهادة الزور.

العاشر: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ أي: التزموا بما عاهدتم عليه ربكم، أو أيِّ أحدٍ من خلقه، يعني: ومحرَّم عليكم نقض العهد.

وفي النهاية يقول ربنا: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرَّ جميعه، وذكر تفصيله أمركم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتنتفعون به في دنياكم وأخراكم.

وقل لهم أيضًا يا محمد:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿أَنَّ هَٰذَا﴾ الذي سبق ذكره في السورة من إثبات: التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة، أو ﴿أَنَّ هَٰذَا﴾ الذي سبق ذكره في الآيتين السابقتين من الأوامر والنواهي، هو ﴿صِرَٰطِى﴾ أي: ديني ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا اعوجاج فيه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ والتزموا به ﴿وَلَا

﴿تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: الطرق المختلفة عنه من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ أي: فتفرِّقكم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأمر باتباع دينه، وترك غيره من الأديان ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: أمركم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار باتباعكم دينه وترك الأديان الباطلة.

يلاحظ: أنه قال أولًا: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾ لأنهم إذا عقلوا، تفكَّروا وتذَّكروا فاتَّعظوا واتَّقوا المحارم.

ثم أخبرهم يا محمد ـ كذلك ـ عنا، بقولنا:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿ثُمَّ﴾ أُخبركم بعد أن بيَّنت لكم ما حرَّم عليكم، أنَّا ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ قبل ذلك، ﴿تَمَامًا﴾ لنعمتنا عليكم ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ العمل بأحكامه، ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ مبيِّنًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ من ربكم، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل يصدِّقون بالبعث والحساب، وهذا ثناء علىٰ التوراة، والرسول الذي أنزلت عليه.

ثم أثنىٰ ربنا عز وجل علىٰ القرآن، فقال جل وعلا:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ علىٰ محمد ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع دينًا ودنيا، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ واعملوا بما فيه، ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله، بعدم مخالفة ما فيه من أحكام، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب اتباع ما فيه، وتقواكم الله.

وكان ذلك بالنسبة للقرآن؛ لينقطع عذر المشركين العرب في عدم الإيمان.

ثم خاطب الله مشركي العرب قائلًا:

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

يعني: أنزلنا القرآن كتابًا مباركًا بلسان عربي، علىٰ رسول منكم، حتىٰ لا ﴿تَقُولُوٓاْ﴾ معلِّلين لعدم إيمانكم ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود أهل التوراة، والنصارىٰ أهل الإنجيل، ثم تقولوا: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ ولكنّا كنّا عن تلاوة ودراسة هذه الكتب، التي نزلت عليهما ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لعدم معرفتنا بما فيها، إذْ هي ليست بلغتنا، ولذلك: لم نعرف الوحي ولا الرسالات، وبالتالي فلم نؤمن لذلك.
ثم قال لهم أيضًا:

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

والمعنىٰ: أنزلنا القرآن كتاباً مباركاً بلسان عربي، علىٰ رسول منكم، حتىٰ لا ﴿تَقُولُواْ﴾ أيضًا معلِّلين لعدم إيمانكم ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ إلىٰ الحق الذي جاء به، لغزارة حفظنا، وذكاء عقولنا، وسرعة استجابتنا.

﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ الآن، ونزل علىٰ رسول منكم الكتاب ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لكم، فإن كنتم صادقين فآمنوا، فماذا فعلتم؟ لقد كذبتم بهذا الكتاب، الذي هو أعظم آية من الله، وأعرضتم عنه، إذًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهَا﴾؟ لا أحد أظلم من ذلك، ولذلك يهدِّدهم ربنا عز وجل قائلًا: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو النهاية في التنكيل بهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: بسبب إعراضهم.

إن أمر هؤلاء الكفار عجيب!! ماذا ينتظر هؤلاء حتىٰ يؤمنوا؟

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

والمعنى: لقد أقمنا الدلائل على وحدانية الله، وثبوت الرسالة، وأبطلنا ضلالاتهم، ولم يؤمنوا، فماذا ينتظرون إلَّا: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره، يعني: أمر ربك بعذابهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: علاماته الدالة على يوم القيامة، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة التي تكلم الناس.. إلخ.

على كل حال: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ هذه ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا﴾ كافرة ﴿إِيمَٰنُهَا﴾ في هذه اللحظة؛ لأنها ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ كما لا ينفع نفسًا مؤمنة عاصية توبتها من المعاصي لم تكن ﴿كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يعني: طاعة، قبل ذلك.

يا محمد ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ واحدة من هذه الأشياء الثلاثة ﴿إِنَّا﴾ في ذات الوقت ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ لكم ذلك.

ثم يهدِّد ربنا عز وجل مَن فارق دين الله وخالفه بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

والمعنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: اختلفوا فيه فصاروا فرقًا، كاليهود والنصارى، أو: نوَّعوه.. كل فرقة عبدت شيئًا، هؤلاء عبدوا الأصنام، وهؤلاء عبدوا الملائكة، وذلك كالمشركين عامة.

أو: اختلفوا فيه، وفرَّقوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كأهل الضلالات والبدع من هذه الأمة، أو: فارقوا دينهم يعني تركوه، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فرقاً متنازعة، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: أنت منهم ومن تفرَّقهم بريء، فلا عليك منهم، ولا من تفرُّقهم شيء، فلا تتعرَّض لهم، هذا منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾ في الآخرة ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ ويجازيهم بنوع ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ثم بيَّن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مقدار جزاء العاملين، فقال جلَّت حكمته:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

يعني: جزاء الحسنة: عشر أمثالها، وجزاء السيئة: مثلها فقط.

﴿وَهُمْ﴾ أي: العاملون لهذه وتلك ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص من الحسنات، ولا بزيادة للسيئات.

وكان هذا البيان؛ ليعرف العباد فضل الله تعالىٰ وعدله؛ فُيقبِلوا علىٰ الحسنات، ويبتعدوا عن السيئات.

وبعد ذلك: يأمر ربنا حبيبه ﷺ أن يخبر بما أنعم الله عليه من الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، فيقول له:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين فرَّقوا دينهم وفارقوه؛ مبيِّنًا لهم ما أنت عليه من الدين الحق: ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، الدين القويم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قائمًا ثابتًا، لم يُحرَّف، ولم يُغيَّر، ولم يُبدَّل، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: وهو الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، مائلًا به عن الشرك، ومبتعدًا به عن الأصنام، التي أنتم عليها.

﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالىٰ أبدًا.

ثم يأمره سبحانه كذلك أن يعلن لهؤلاء المشركين: إخلاصه لله، إذ يقول له:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للدنيا كلها معلنًا قمة الإخلاص: ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ أي: عباداتي كلها ﴿وَنُسُكِى﴾ من حج وذبح، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ وما أتيته في حياتي واعتقدته، وأموت عليه، من الإيمان بالله، وتوحيده، والإيمان برسله، واتباعهم، والعمل الصالح، كل ذلك، خالص ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وحده ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ذلك، ولا في شيء منه.

﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ التوحيد والإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مسارعة في امتثال ما أمرت به.

لمَّا قال الكفار للنبي ﷺ: ارجع إلىٰ ديننا.. قال له ربه:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الذي أعبده، وأوحِّده، وأخلص له، ﴿أَبْغِى رَبًّا﴾ أطلب ربًّا آخر لي غير الله تعالىٰ، وهو ربي وربكم ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ ومالكه، وخالقه، ومربيه.

ولمَّا كان المشركون يقولون للمسلمين: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

بمعنىٰ: ليكتب علينا لا عليكم من الخطايا، أو بمعنىٰ: لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا، ردّ الله عليهم ما قالوا بقوله، قل لهم: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: كل نفس عليها إثم ما كسبت لا علىٰ غيرها.

وكذلك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ لا تحمل نفس عن نفس سيئاتها.

وقل لهم كذلك: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وربي ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الأديان التي فرَّقتموها، أو فارقتموها، أو افترقتم فيها.

ثم تختم السورة بتقرير أن الله تعالىٰ جعلنا خلائف الأرض؛ ابتلاءً، فقال عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

والمعنىٰ: واعلموا جميعًا أن الله الواحد الأحد، سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ لا غيره، من الأنداد والشركاء الذين تزعمون، ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة، يعني: يخلف بعضكم بعضًا فيها تتملَّكونها، وتتصرَّفون فيها، وهو وحده الذي ﴿رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الرزق، والعقل، والشرف، إلىٰ غيرذلك، وكان ذلك الاستخلاف، والرفع ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ أي: يختبركم فيما أعطاكم من النعم، كنعمة المال، ونعمة الولد، ونعمة الصحة، ونعمة الجاه والمنصب.

ويختبركم كيف تشكرون، وكيف تتصرَّفون، وكيف يصنع القوي بالضعيف، والغني بالفقير، والكبير بالصغير، والحاكم بالمحكوم، إلىٰ غير ذلك، فيكون الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر، ولمن عصاه ولم يتب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحًا، وقام بشكر هذه النعم.

* * *